يابهـــــيةوخبـــــرينى

« ثلاث روايات قصيرة »

١- حصـــــار
٢- انتظـــــار
٣- انفجـــــار

السـيد نجـــم



المؤلـــف : السيد نجم
الكتـــاب : يابهية وخبرينى
الناشـــر : نادى القصة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٦

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى - القاهرة
ت : ٧٩٤١٩٢٩



إهـــداء

« إلى كل من خاض تجربة الحصار
والانتظار والانفجار فى
الحرب والمرض »

رواية قصيرة

حصـــــــار

معذرة يا سيد الألم

هبت الريح المنحدرة من نشيد الألم ، ولأنه لم يتاجر فى بنات الهوى ولا يعرف سوى الكتب القديمة .. تلبسته الدهشة .

الدهشة .. أوقعته فى عتمة المجهول ، وفى العتمة توصد أبواب البكاء ، وتفتح مزاليج الدرب المحتوم . الدرب الذى عرفه لا رائحة ولا طعم ولا مذاق ، بلا نوافذ ، وفى اتجاه واحد .

* * *

أصبح جسده أكثر خفة ، ليس لأنه فقد خمسة كيلو جرامات من وزنه خلال اثنى عشر يوماً ، ولا بسبب ذاك الألم الذى نهش أمعاءه فجأة .. جعلها بلا عمل مشلولة وعاجزة . بسبب رغبته المجنونة لأن يحلق ويبعد بروحه ، لعله .. يرى ويعرف . لم يكن يدرك من قبل ، أن الروح هكذا ثقيلة ، وقادرة بثقلها أن تثبت أقدامه على الأرض . فهمس فى أذن زوجته التى رافقته فى غرفة المستشفى - ولا تشعر بما يشعر به - « لم أكن أعرف قبل مرضى ، أن روحى هكذا ثقيلة » . يبدو أنها لم تفهم ، أو اعتبرت ما قاله زوجها العليل من هلاوس الألم ، لعلها فهمت وشاءت ألا تشاركه أفكاره فيعتقد أنها الحق والحقيقة .. فضلت الصمت .

عندما وصل المستشفى ، وقدموا له الإسعافات الأولى الضرورية ، شعر وكأن خرطوم نقل المحاليل المثبت فى ذراعه اليمنى أو اليسرى ، مع خرطوم « الرايل » الملعون الذى رشق إحدى فتحتى أنفه

إلى البلعوم ثم المرىء فالمعدة .. معا يحملانه ما بين السماء والأرض . فقرر أن ينزع روحه ، يذهب بها بعيداً .. لعله يرى أفضل ، ويعرف ... لم يكن الأمر هيناً أو سهلاً ، حتما كان شاقاً ، وإلا لماذا تذكر ما يردده الناس للسيدة الحامل بعد أن تضع حملها : « سبحان من خلص روح من روح » .. أيقن أنهم صادقون .

وإن بدا للرائى الذى يجهل ما أشعر به من خفة أننى مثبتاً على سريرى .

* * *

« إن شاء الله خيراً .. لا تحزن ، اطمئن » .

قالها الممرض المؤهل بشهادة دراسية معتمدة وبعشر سنين من العمل فى المستشفى الكبير التخصصى . لم يكن « محروس » مؤهلا للتمريض وحده ، استقبله ببسمة غامضة ، لم يسع العليل للتحرى والبحث ، تأكد أن الألم قادر على نزع كل الحواس إلا من النطق بكلمة « آه » بينما نطقها محروس بمعنى يخصه وحد .. سرعان ما قدم نفسه إلى العليل بورقة كراس مدرسى مكتوب عليها « المطرب الشعبى .. محروس الغنيمى » ! .. وفرض على جدران الغرفة بـ« آه » أخرى غير تلك التى ينطقها صاحبنا .

فى اليــوم الثالث عشر من دخوله الغرفة الضيقة ، حدث ما لم يكن يتوقعه .. سقط خرطوم « الرايل » من أنفه . فلما أخبر

«محروس» المطرب أو الممرض ، بدا وكأنه يزف البشرى ، ونطق جملته المتفائلة المرحة ، وهو يدرك خطورة سقوط خرطوم « الرايل » قبل إتمام دوره .

لم تنحصر مهمة خرطوم (الرايل) على نقل إفرازات معدته الغامضة إلى كيس خارجى ، مما هون عليه أعراض القيء المستمر والفواق (الزغتة) المزغجة ، تلك التى ألمت به بسبب شلل أمعائه المفاجئ ، حتى أن الطبيب المعالج حذره بقدر هائل من الموضوعية والحيادية ، كأنه يخبره بنتيجة لمباراة فى كرة القدم ، قال :

« إنها خطوة حياة أو موت .. لو فشلت فى إدخال الخرطوم من أنفك سوف تموت خلال ساعات معدودة » قالها مع اللحظات الأولى لدخوله المستشفى !

شعرت الزوجة بالقلق ، لم تطمئن كما طلب الممرض منها ومن العليل . بينما تابعها بعينيه النشطتين ، وتمنى لو تشعر بالسعادة التى غمرته لتخلصه من ذاك الخرطوم !!. لم تترك للأمانى فرصة لأن تزدهر ، أسرعت إلى رئيسة التمريض عادت فورا ، أخبرت زوجها مبتسمة بسمة حائرة :

« محروس الممرض أخبر الجميع ، وصل الخبر الآن كما البرق إلى الاستشارى الكبير المعالج وأخبرهم بما يلزم »! .

* * *

طلب من زوجته أن تقرأ له من الجريدة ، وأن تضيء شاشة التلفاز ، تمنى لو يستطيع أن ينشغل عن ألمه الذى لم يبرحه بعد ، وإن خفت وطأته قليلا .. بعد تلك الأيام أو الفترة التى يعجز عن حسابها ، لولا زوجته التى تخبره بعددها ..

.. هروب متعهد حفلات « أوبرا عايدة » دون سداد مستحقات الفنانين ، المتعهد حمل معه مليونين ونصف المليون جنيه .

.. « ليندا فرانكلين » ، سبع وأربعون سنة ، تعمل فى مكتب التحقيق الفيدرالى .. كانت تتسوق من المحل التجارى فى إحدى ضواحى واشنطون ، وأصبحت الضحية التاسعة لقناص مجهول أزعج العاصمة الأمريكية .

.. يقول « بوش » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إن الاعتداءات الإرهابية فى الكويت واليمن وإندونيسيا مخطط واحد .

كان يتمنى أن يقتنص أحلامه الطائرة هناك ، لم يتابع اللعبة ، يتجدد الألم الذى حير الطبيب الكبير ، وطلب عمل أشعة مقطعية على البطن فوراً .

* * *

اختلق العليل سماء تخصه وحده ، خط شريعته ، واعتنق الحكمة التى ما كان يعرف شيئاً عنها .

« الاعتياد » يفقد الرأس ملكة التفكير والتفكر ، وفى الألم والعجز محطة لتجاوز اعتيادية الأيام والليالى والأشياء . كما أن فى تناول «الطعام» نعمة لا يدركها أصحاب عادة تناوله ثلاث مرات يومياً ، وربما أكثر . منعه الألم والتقيؤ والأطباء عن تناول الطعام أو شرب المياه اكتفوا جميعاً بقارورات المحاليل المرشوقة فى ذراعية .

تجاوز الرجل ما دار برأسه ، سأل زوجته التى ما إن سمعته حتى ظلت تضحك طويلا على الرغم من حزنها الدفين على جسده المعلق بالخراطيم . قهقهت وهو مازال يلح جاداً يقول :

« أريد أن آكل طبق بصارة » !!

حاول إقناعها ، لعلها تتعاطف مع رغبته تلك :

« هل تعلمين ماذا أرى منذ صباح يومنا العاشر وحتى الآن فى سماء تلك الغرفة ؟» .. لم ينتظر إجابة :

« رأيت طبقاً معبأ برائحة البصارة يغازلنى فى سقف الحجرة .. أنفى تشم رائحة التقلية والنعناع !! » .

يالها من وجبة سخية وشهية ! ، تلك « البصارة » التى لم يتناولها منذ خمس عشرة سنة ، منذ أن تزوج التى مازالت تضحك !!

* * *

خال نفسه مع « البصارة » يصطاد فاكهة محرمة سوف تنزعه من جسده المقيد إلى سماء أحلامه الغامضة !

تناول اللهفة نحو يوم آخر ، يتمنى لو يعانق الغد وبعد الغد . لكن العصافير بلا إجنحة ، وأحشاؤه التى قفزت من خلف جدران بطنه تعلقت بألسنة النار .

* * *

لم تكن تاك الورود المقيدة فى غلالة من الورق السيلوفان تشعره بالبهجة أو الأمل . لمحها تذبل يوماً بعد يوم . وعندما قررت زوجته تسليمها إلى عاملة النظافة .. تجاوز كل ألم . ارتفع صوته ، على غير التوقع .. ونهرها :

« لن يحدث ، دعيها تذبل ولا ترميها فى سلة المهملات !! ».

لم تفهم الزوجة ما دار فى رأسه ، كما لم يقدم العليل تبريراً . صبرت الزوجة حتى انتهى من كلماته المنقوصه ، وقد نطقها ممزقة . ثم قالت :

« لن أرمى بالباقة غالية الثمن تلك .. » .

كان يعلم أنها تتكلم عن تلك الورود الصناعية التى بلا رائحة ، ولم تذبل .

لم يجد فى نفسه القدرة على المناكفة ، لكنه حاول دون أن

ينطق بكلمة واحدة ، تابع محاولته الخاصة جداً فى اقتناص أحلامه من جديد .. وحده .

* * *

تعقب الرجل المريض سبل المقاومة .. ، وإن بدا مستسلما للشكشكات والخراطيم المعلق بها . ممدد الذراعين ، يبدو الرأس بمستوى الجسد ، ومع ذلك لا يشغل من مساحة السرير إلا القليل ، ظن أنه تأقزم أكثر من اللازم .. فسأل زوجته :

« لماذ أشعر أننى أقل طولاً ؟؟ »

لاذت بالصمت وكعادته معها ، إن سأل لا ينتظر إجابة ، مكتفيا بالبوح الجميل .

تظن جماعات الزوار المتراصة بين جوانب الحجرة التى ضاقت بهم ، وكأنه ليس متابعا لثرثرتهم . لا يدرون أن العليل الخبيث يعمل عقله فى كل كلمة وهمسة ينجح فى التقاطها من بين حواراتهم العادية والهامسة فى أغلب الأحوال .. سعد بلعبته معهم ، وأنه يشاركهم فى غفلة منهم ، حتى وإن لم يرغبوا فى ذلك ، وإن لم ينبس ببنت شفة .

الخبيث عقد عقداً مع قوى غامضة وصادقته ، قال لها : افتحى الأبواب أيتها الريح الشديدة ، افتحى النوافذ أيتها العصافير العنيدة ، افتحى الأرحام أيتها المولدات الماهرات ، افتحى النار أيتها الحرب المقدسة .

* * *

(٢)

معذرة يا سيد الحرب

كل صباح جديد ، منذ بداية مرضه ، كان يبحث عن يوم آخر ، وعن غرفة بلا أبواب ولا نوافذ . بلا سقف . يحلم لو يسير فوق طريق أخرى غير التى وجد جسده عليها .

تمنى لو يعتنق دربا يجهل الألم ، فيه يسمع أصداء صوت خطواته عاليا ، وأنفاسه رتيبة مستقرة ، مع صوت فكيه ولسانه يلوك جرعة ماء .. الماء الذى لم يتذوقه منذ بداية الوعكة .

آه .. يا لمذاق الماء ! ، نعم للماء مذاق ، قالها ونظر إلى زائريه . بعد فترة دهشة صامته أومأ بعضهم ، وارتعشت جفون بعضهم الآخر .. قالوا معا :

نعم .. نعم ،

« للماء لون وطعم ورائحة ! »

* * *

خلال زيارته الأولى ، اكتفى الطبيب المعالج بنظرته الباردة غير المبالية ، لتؤكد ما صرح به لسانه :

« سوف نفتح بطنك بنسبة سبعين فى المائة ، لعلنا نعرف سر شلل أمعائك ومعدتك وسر الانسداد المعوى الذى تشكو منه » .

لما تعلقت عينا المسجى فى صمت بشفتى الرجل أكثر ، سأله الطبيب إن كان قد أجرى عملية جراحية منذ فترة قريبة ، فأومأ العليل، ووجد الطبيب ما يقوله :

« ما أخشاه أن يعود الالتصاق ثانية وبسبب الجراحة الجديدة !! »

فالتقط الهامد على سرير ومضة جب لا يعرفه ويخشاه .. لم يشأ أن يبوح بما راوده . لولا أن الطبيب سأله عن نوع الجراحة السابقة .

عرف أن مريضه لم يصب فى معارك أكتوبر ٧٣ ، لكن بسببها .. حاصرت قوات العدو وحدته الطبية ، نجحت فى الوصول إليها بعد «الثغرة » فأسرع الجميع بحمل المصابين إلى السيارة « الزل » الوحيدة أمروا السائق باجتياز مدقات جبل « عتاقة » بعيدا عن الطريق الأسفلتى وحتى مدينة السويس .. حيث المستشفى المركزى هناك .

وفوراً ترك الجميع أرض الوحدة الطبية ، بعد إشارات كشفت عن قرب اقتحام القوات المعتدية لها .

عاد الجميع بعد اتفاقية فض الاشتباك الثانية ، كان العمل شاقا فى ترميم ما خربته قوات الاحتلال . سقط مغشياً عليه من شدة الألم ، كان الألم بسبب « فتق سُرى » .. وأجروا له عملية سريعة تحت ضوء الشمس وبين الأطلال .

لم يجد صاحبنا سببا للبسمة التى تعلقت بسحنة الطبيب المتابع لحديث الحرب والعملية الجراحية ، كاد يسأله ، لولا أن الأول لحقه قائلاً :

« دعنا نتابع الفحص .. ربما الجراحة الأولى أحدثت التصاقاً فى أغشية البطن الداخلية »

* * *

إلا أن يموت وحيداً ، ذاك الذى يأتى من جهات شتى .. تحت رذاذ المطر وصفير الريح ووهج الشمس .. وفوق سرير العجز .

يوم ارتدى « بيادة » المجند مع زملاء كليته فى زمن الحرب الأخيرة بعد النكسة ، لم تطارده خفافيش الجب اللئيمة ليلاً ، ولا أشواك الصبار .

تذكر أيام تجنيده الأولى ، كانوا يمزحون بالموت وعليه ، فنشروا نعى « سليم » ، زميلهم (الراقد بينهم) فى الجريدة الصباحية ! لم يَهَبْ أحدهم الجب ، وضحكوا لليلة كاملة ، حتى وهم داخل محبسهم فى سجن الوحدة ، عقابا لهم وتنفيذا لأوامر قائد مركز تدريب الخدمات الطبية ، وقد شاركهم الضحك فيما بعد قائلا :

« تمزحون بالموت .. الموت !! » .

* * *

احتواه الأرق وشغل نفسه بالأسئلة لساعات طويلة . سأل أمعاءه العاجزة أن تلين ، وربه أن يستجيب لدعاء الداعين ، تلك الأدعية التى التقطها بأذنيه من بعضهم فور رؤيتهم له مسجيا فى هدوء ، والتقطها بعيينه فى نظرات بعضهم الآخر .

لولا تلك البحوث المتتالية الكثيرة .. من أشعة مقطعية ، ومنظار قولون ، وأشعة تقليدية وغيرها . لولاها لاعتقد أن الهلاك أقرب مما يتوقع . كلما بدأ فحصاً جديداً عاوده الأمل .

شعر وكأنه يحارب الآتى ، وخلف عتبة الغرفة تنام جنوده البائسة ...

* * *

ما كان يعرف عن جنوده إلا المشاكسة ، غير مبالين ، صوت انفجار هنا ، وأزيز طائرة هناك ، ودوى مدفع بعيد وآهات لا تنقطع فى العنبر الذى يقوم على تمريض رواده بالمستشفى الميدانى العسكرى فى زمن الحرب .. عند الكيلو ١٠٥ طريق القاهرة ـ السويس .

مع بداية المعارك صام الجنود والأطباء ، المصابون والمعالجون .. بغية ملاقاة ربهم تائبين ، و فى فترة تالية وقد حاصرتهم القوات الإسرائيلية بعد ثغرة « الدفرسوار » ، نجحت فى الوصول إلى طريق السويس الإسفلتى .

كان فى البداية يتفاخر بقدرته على الصوم وأنه يعف عن الطعام

والشـراب .. غيـر مـجـهـد مع مـشـقـة العـمل ليل نهـار ، ومع آهات المصابين العائدين من أرض المعركة شرق قناة السويس بعد عبورهم القناة .

في ذلك اليـوم البـعيـد ، اليوم الخامس عشـر من بداية المعارك انتابته وخزه فى أمعائه للمرة الأولى ، لم يكن يستشعرها من قبل . يوم أن صدمه مشهد علمهم أمام حدود وحدته عندما لمح الخطين الأزرقين يحتضنان نجمة داود السداسية . تذكر شعارهم : من النيل إلى الفرات !!

فى تلك الأيام البعيدة لم يشعر بالحصار .. غرفته الآن ، موصدة الأبواب والنوافذ هى الحصار .

* * *

راح المريض ينظر فيما حوله جاحظ العينين لم تستطع زوجته الرد على سؤاله :

« ألم يعد هناك أمل فى شفائى .. ؟ » .

انقضت خمسة أيام بلا طعام ولا شراب ، مرشوقاً فى سريره ، معلقاً فى كيس جمع إفرازات المعدة وزجاجات المحاليل ؟!

على غيـر توقع بطرف عينيه نحوها .. زوجته التى تعلقت بالصمت أكثر من المعتاد فشعر بالندم . يبدو أنه أصبح عبأ تنوء عن حمله ، يعرف عنها قدرتها الفائقة على مداراة مشاعرها إلى غير

حقيقتها يعلو صوتها بالضحك مرة ، وبالصراخ فى وجه الممرضات مرة .. ودائماً تبدو قوية أكثر من اللازم !

* * *

انقطعت صلة جماعة الرقباء الطبيين فى المستشفى الميدانى ليومين متتاليين منذ بدء المعركة .. منذ اليوم الأول لتجنيدهم معاً ، لم يفترقوا إلا خلال أيام الأجازات . مع بداية المعارك وهب الجميع نفسه لدهشمته ، يقوم بالعمل على رأس مجموعة الممرضين الجنود .

ولما كان المصابون قلة ، والعزلة مره ، ملوا محبسهم الاختيارى. مع اليوم الثالث لبوا نداء زميلهم « بطرس » الذى شق هدوء المغربية ، وصاح وسط الدشم قائلا :

« ميعاد الرضعة يا ولاد الكلب !! » .

فخرجوا إليه مبتسمين وقد عرفوا جميعاً أن زميلهم يقصدهم . دخلوا دشمته ، تناولوا ما أعده من طعام . أكل معهم وقد صام يومه عفواً أو جبراً ، فقط حقق رغبته منذ أن التقوا للمرة الأولى بمركز تدريب الخدمات الطبية منذ سنوات .. أن تأكل مجموعة الرقباء الطبيين معاً ، حتى أيام الحرب !

حديث المسجى على سريره لزوجته الصامتة عن مذاق الطعام وحلاوته فى زمن الحرب ، وهب هواء الغرفة نسمة ندية ، معبأ بكل روائح الأطعمة المحرمة عليه ، فأصبح الجو منعشا وإلا لماذا علا صوته ، وبدت بشرته هكذا مشرقة !

* * *

وافقت السلطات المركزية بدعم الحكومة الفيدرالية وإمدادها بكل الإمكانات المناسبة للقبض على السفاح الغامش فى واشنطون .

.. « بوش » رئيس الولايات المتحدة فى تصريح له : سوف نسقط النظام الحاكم فى العراق وعلى رأسه صدام حسين .. إن لم يوافق على عودة المفتشين الدوليين ، وإن وافق .

.. أحدهم أعلن أن متعهد حفلات أوبرا عايدة لم يهرب ، بدليل أنه ترك مدير أعماله فى القاهرة ، كما أعلن أن مدير الأوبرا سدد كل مستحقات الفنانين من خزينة الأوبرا .

تعثر ذهنه ، لم يجد تفسيراً للألم الذى لم يبرحه مع كل محاولات الطبيب الكبير . آخرها قالها صريحة : سوف انتهى من عمل منظار القولون ، وهو الذى سيوضح الأمر كله بعد أخذ عينات لفحصها باثولوجيا » .

أضاف مبتسما بعدها :

« وسوف نحدد الجزء الذى سنقطعه فى العملية الجراحية .. إن كان قصيراً أو طويلاً !! »

عرف أنهم يبحثون عن ورم خبيث فى أحشائه ، فقال فى نفسه : « مازالت التفصيل بعيدة .. مازالت الحرب مستمرة .

* * *

معذرة ياسيد الاحتمالات

شعوره بأنه كائن على طريق الانقراض ، جعله يبدو وكأنه منتبهاً عنوة ، وشارداً فيما يسمع ويرى عنوة أيضاً ، مدفوعاً هو إلى عالم الاحتمالات .

أخبره الطبيب هذا الصباح :

« الانسداد المعوى له أسبابه .. ربما التوت الأمعاء ، أو اندغمت فى بعضها البعض ، ولعلها سددت بسبب ورم نجهل حجمه وأسراره . واحد منها وراء ما تشكو منه ، ولا أستطيع أن أحدد الآن » . ولأنه لا يجزم بشيء ولا ينفي ، اكتفى بمتابعة أبحاثه ، ثم أمر بتجهيز مريضه لعمل أشعة « بالباريوم » على القولون .

* * *

بدا العليل وكأنه قرر أن يفرض نفسه على هذا العالم ، فتشاجر مع الممرض النوبتجى ليلاً ، والمتكفل بمتابعة تعليق زجاجات «الجلوكوز» و « كلوريد البوتاسيوم » و « رينجر » .. الواحدة تلو الأخرى. يبدو أن مطربه الممرض ، أو ممرضه المطرب ، نجح .. فتعلق به . يسخر على صوته ، ومن تعليقاته التى كثيراً ما تبدو وكأن «محروس» يعيش عالمه هو ، وليس عالم المرضى ، والناس . كثيراً ما كان ينظر إليه ويسأل رأسه : لماذا اختارنى تحديداً كى يسمعنى صوته وليغنى فى الغرفة بصوت جهورى ، غير عابئ

بشيء..؟ لم يجد إجابة ! ، ومع ذلك جعله المبرر المباشر لأن يكره الكثير ممرض الليل .

منذ وخزه الإبرة الأولى ، اعترف الجميع أن مريضهم حالة خاصة لا ينجح معها سوى الممرض « علي » للوردية المسائية . عروقه اختفت ، يظن من يبحث عنها أنها هربت منه ، وان كانت حالة شائعة مع بعض المرضى ، إلا أنه كان أكثرهم إزعاجاً .

نقلوا « الكانيولا » تلك الأنبوبة البلاستيكية المثبتة بإبرة مناسبة ، ليتصل بها خرطوم عبوة المحاليل ، نقلوها أكثر من عشر مرات من موقع إلى آخر ، على امتداد الذراعين والكفين . وإن بدا ذراعاه متورمتين .. زرقاوتين .. لم يفلح دهان « الهيموكلار » شائع الاستخدام لعلاجها .

سب العليل « علياً » ، اتهمه بأنه وراء آلام الذراعين المتورمتين ، لا هو ماهر ولا يجيد شيئاً في مهنة التمريض !!

كان الممرض الشاب أكثر ذكاء .. لم يعقب !!

* * *

بينما انتهى فني الأشعة البدين القصير اللئيم من التجهيز السريع لإجراء « أشعة بالباريوم على القولون » ، توجس العليل خيفة من شردة الرجل الذى يبدو وكأنه يحمل خواء تحت جمجمته . يتحرك في آلية غريبة كما الإنسان الآلي منذ عشر سنين ، لا ينطق خيراً ولا

شـراً ، ولا ينظر إلى مـريضـه ، فقـط يشـيـر إلى المـريض بأن يـخلع عن نفـسـه ثم إلى ما يجـب تناوله ثم باعـتـلاء منضـدة الجـهـاز .. وهكذا . يبدو وكأنه معلق بالأشياء والأجهزة ، فيتحرك بخفة ونشاط وصمت ، ولكن حـركة صـحـيحـة ولـم يخطأ أو يتلكأ ولو للحظة واحدة وهو مـا لفت انتباه العليل ، الذى يعشق الصمت أصلاً !

تابع فنى الأشـعـة الإجـراءات برشق ذاك المبـسـم الطويـل فى مؤخرة المتوجس خيفة ، المرتعد بسـبب الوهم الذى تلبسـه أو بسبب برودة منضدة جهاز الأشعة المعدنية .

ليـبـقى المبـسـم داخله حتى انتهى تفريغ كل محتوى العبـوة . سأله إن كانت الكمية لتراً ، إنها كمية كبيرة حقا . أجاب الرجل بل أكثر من لترين : « وان شعرت بالضيق أو الألم الزائد أخبرنى » .

حتى وإن شعر بالألم ، لن يخبـره ، لن يضع العراقيل امام قـراره الخاص جدا : « لن أدع لهم فرصة واحدة لاغتيالى .. سوف اتحدى كل أسلحة عالم الاحتمالات ، العالم الذى فرضوه على فرضاً » .

كان عـلى فنى الأشـعة أن يلتقـط له عـددا مـن الصـور قـبل تفريغ «الباريوم » من بطنه .. فى دعة وسكون كان العليل ينفذ الأوامر . يلـبى طـلـب السـيـدة « هـنـد » رئيـسـة التـمـريض التى تبـدو أكـثـر الوجـوه انفـعالا من حـوله . كـانـت كل الوجـوه فى مـركـز التـصـوير بالأشعـة ، والكائن ببـدروم المسـتـشـفى محـايدة ولتكن بليـدة ، إلا إياها مفـرطة

النشاط والحركة والكلام والنظرات المحدقة ، وربما عن غير داع . السيدة هند ومعها السيد الوقور أيضاً .. ذاك الطبيب الذى التقطه منذ الأيام الأولى .

اكتشفه خلال الزيارة الأولى للمركز ، فيما كان الطقس بارداً والرطوبة مرتفعة ، بينما العليل شبه عار فوق المقعد المتحرك . فقد تركه الممرض على المقعد بالممر الضيق وذهب لأمر يعنيه ، ربما لإحضار بعض الأوراق التى نسيها فى الغرفة .

لمح العليل ما لم يستطع تفسيره فى أول الأمر . التقط أحدهم مهيب الطلعة ، وقور الملامح ، يطل برأسه من خلال فراغ إحدى الأبواب المواربة والكثيرة والمطلة على الممر الضيق .

بقى صامتا على صورته حتى اضطر إلى أن يقلص عضلات وجهه على هيئة الابتسام وكيف لا يفعل وقد انفلت الوقور المهيب من برواز باب الغرفة ، تقدم نحوه .. سار بخطوات ثابتة ، اقترب منه ، ابتسم ، ربت على كتفه ، قال :

« مساء الخير .. كيف حالك ؟ » .

تعثر ذهنه ، فقد القدرة على تفسير سلوك الطبيب .. هل هى الشفقة لأنه أحد أطباء المستشفى ؟ ولعله يعلم ما يتوجس منه ، وهو ما لا يعلمه كمريض .. لكن كيف وهو الطبيب الذى يقابل فى اليوم الواحد العديد من الحالات الغامضة ، وربما الصريحة الخطيرة ؟؟!

ربما هو قدر من المواساة وبث الثقة في مريض مضطرب .. لم لا أليس الطبيب إنساناً أيضاً ؟! فلما أنهى الطبيب الوقور مهمته التى تخصه وحده ، حتى أنه عاد واختفى خلف الباب الموارب ثانية ، دون أن ينتبه العليل إليه . عاد وسأل رأسه : لماذا أجد دوماً تفسيرين لكل ما أسمع وأرى ؟! .. ما كنت كذلك !! » .

أصبح قدره .. اعتياد الألم ، لعله قرر أن يعتاد الألم المقدر ، هذا ما انتهى إليه وهو فوق السرير يدير دفة ما كان منذ اللحظة الأولى . مع كل كريزة زائدة من الألم ومع أية إجراءات مؤلمة أثناء الفحص والتشخيص .. كان يتألم ، وفوراً يقرر أن ينساه فور اجتيازه . فضل أن ينتظر الألم ، ويطمئن رأسه ، كى أشعر بلحظة سعيدة ، بعد زواله لحين .. كما الأنثى التى تلد للمرة الأولى أو حتى العاشرة ، تشكو من ألم الوضع ، وبعد الولادة تنسى أفاعيل الألم فيها !

سعد مره لأنه أكتشف حقيقة علمية فى الألم ، اكتشفها على نفسه ، يوم رفض طبيب الأسنان إعطاءه ما يخفف عنه ، ورفض أن يخلع الضرس المسوس ، علل الطبيب رفضه ، بأن الألم يبقى ويزيد حتى درجة يفقد فيها الإنسان الإحساس بواخزاته .. وهو ما تحقق . منذ ذلك اليوم البعيد ، أعلن العليل شعاره الشهير ، الذى عرفوه به ويعلنه كلما اشتكى أحدهم من الألم أمامه ويسأله النصيحة :

« سوف يتعب الألم ويذهب » .

* * *

.. أعلن مسئول في وزارة الثقافة ، أن كل ما قيل حول منتج أوبرا عايدة مجرد إشاعات (ويؤكد أن احتمال هروبه غير وارد) .

.. أعلن مسئول أمنى أمريكى كبير أن الضحية العاشرة للسفاح لم يمت ، وإن كانت إصابته خطيرة (ويؤكد احتمال أن يكون السفاح المجرم من الإرهابيين العرب أو المسلمين) .

.. « بوش » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يقول إن ضرب العراق والتخلص من نظام حكم سفاح العراق الذى قتل شعبه وجيرانه قريباً جداً (ويؤكد احتمال أن تكون الضربة الأولى بعد قرار مجلس الأمن أو بدونه) .

ألقى العليل بالجريدة ، شعر بالاختناق ، بدا وكأنه يرغب فى التنفس العميق ، وكأن هواء الغرفة أقل من احتياجه . سدد نظرة إلى النافذة ، سألته زوجته إن كان يرغب فى فتح النافذة ، ابتسم لها على أمل أن يشعرها بالطمأنينة ، وعلى احتمال محو ما فهمته من نظراته الصامتة .

* * *

أحد الزوار اقترب من أذنه فور أن قبله على جبهته ، همس قائلا :

« إن الألم وهم .. صنعه عقل الإنسان وحده » !!

بدت الدهشة على وجه الراقد مستسلماً ، إنه قراره وحده ،

وتجربته الخاصة جداً ، ماذا يعنى هذا الرجل .. الألم حق وحقيقة ، وكل ما نسعى إليه ،. أن نجد تبريراً كاذباً ، ليس مع الألم وحده ، مع الحياة !!

فضل ألا يعقب ، وصنع بسمة مشجعة لأن يتابع صاحب اللحية البيضاء بما يهذى به ، وإن كانت لحية فنية وليست صوفية .. إلا أنها أكسبته وقاراً ، وأحاطته بالأسئلة من كل أصدقائه وزملائه القدامى فى مجالى الصحافة والأدب .

تابع صديقى « علام » :

« من يعتقد أن قوة الاحتمال تتوقف على قوة الإيمان أى قوة إيمان المرء .. فهو على خطأ » .

سأله العليل وقد شعر بالاستفزاز :

« كيف ؟ هل تعنى أنها تتوقف على العقل ؟ »

تابع صاحب اللحية الشهباء :

« وأيضاً لا تتوقف على قوة الفكرة فى العقل .. وإن استندوا فى رأيهم بقوة تأثير العقل على ظاهرة رجال السيخ أو السائرين فوق جمرات النار » .

أشاح العليل برأسه ، لم يشعر برغبته فى الجدال ، ولا فى وضع الاحتمالات والجرى خلفها ، مل اللعبة .

فهم الصديق ، تابع وحده :

« الأفضل هو الانصهار بين حدى البعد الإيمانى والفكر البشرى .. فإذا كان الألم يواجهنا مع واقع الحياة اليومية أو من داخل أحشائنا ، فهو قدر من أقدار الله ، لذا فالعمل على مواجهته واحتمال تحطيم الألم هو قدر أيضاً » .

* * *



معذرة يا سيد السقوط

هل كان يطير عندما خال نفسه يسقط ؟ .. شعر وكأنه يمشى على سحابة متحركة ، وتلاشت فجأة !! .. أفرج ما بين جفونه ، رمى نظرة دائرية من حوله ، لم ير ، ليس بسبب الظلمة وحدها ، بسبب غبشة النوم الذى يتصيده على غير ميعاد ، من ليل أو نهار .

تمنى لو أصبح حبة لقاح تحملها الريح إلى حيث تشاء ؟ .. أينما تسقط سوف تبقى « حبة لقاح » قادرة على الإخصاب لو صادفها « تويج» زهرة أو لم يصادف .

كان موقنًا من قدرة خفية لا يدريها فى نفسه من قبل . أن يتحمل الجوع والعطش ، وإن لم تطاوعه أمعاؤه .. وإلا لماذا يشم روائح طشة تقلية الملوخية ، وشواء اللحم الضانى . ولماذا يسمع صوت هرس العيش الناشف ، وفسخ الطيور المحمرة ؟ وبما يبرر رؤيته لألوان الخضروات والفاكهة على غير مسمى ألوانها .. أحمر الطماطم غير الأحمر ، أخضر الكوسة غير الأخضر الذى يعرف !! .

ثم لماذا تفرغ لمشاجرة زوجته لأن تأكل ولا تنشغل بشىء فور إحضار صينية الطعام .. ؟ فضحكت فى ذكاء ، وكأنها فهمت ما يدور برأسه ، قالت :

« لا تقلق سوف أكل لى ولك !! »

* * *

كثيراً ما كلن يسأل رأسه : لماذا هم ههنا حول سريره ، بينما هو هناك .. مع زملاء الحصار فى زمن الحرب البعيد ؟؟

غلبته لحظة اعتراف ، فتذكر واقعة نقل المصابين من وحدته إلى مستشفى السويس العسكرى . فى اليوم الخامس من الحصار ، قرر قائد المستشفى الميدانى الانسحاب ، بعد إصلاح إحدى سيارات «الزل » لنقل الأحياء من نزلاء المستشفى الميدانى . زاد العدو من استطلاعاته ، وهو ما فسره البعض باقتراب ميعاد اقتحامهم لموقع الوحدة الطبية .

منذ الثانية عشرة حتى الرابعة بعد الظهر ، نفذ الجميع مهمة حمل المصابين من داخل الدشم إلى السيارة . ظن المصابون أنهم أسوأ حالا من أفراد الوحدة ، وعلى الجميع تحمل عبء حملهم لاعتلاء السيارة . تكدست أجساد المصابين حتى اتسعت السيارة لحمل الخمسين مصاباً !!

عملوا جميعاً فى صمت وهدوء ، حتى جاء الشيطان الطائر .. طائرة على ارتفاع منخفض تزأر .. لا يدرى إن كانت للعدو أو من طائرتنا .. تقترب ، فيعلو الزئير أكثر ، وقبل أن تتجاوز موقع الوحدة والسيارة المكدسة بالأجساد المنهكة .. كانت كل الاحتمالات مقدره، إلا احتمال وحيد .. أن يهبط المرضى إلى الأرض ثانية !! . جملة المصابين على الأرض ، يزحفون !

خلع الذى أصبح عليلاً خوذته ، وضعها تحت عجزيه وجلس صامتًا . استطاع أن يفسر المشهد . هؤلاء الجنود ارتبط صوت الطائرة معهم بصوت الانفجارات والآهات والموت .. فسعوا للنجاة .

حاول أن يتماسك ، وقف مستجمعا قواه .. على الرغم من الرضعة الهزيلة التى يتناولها بعد الحصار - ما عادت وجبة ساخنة - فقط قطع من البسكويت الخشن الصلب المغموس فى كوب من اللبن البودرة غير الذائبة فى بعض من محتوى زجاجات محلول الجلوكوز . قال :

« من منكم يستطيع اعتلاء السيارة وحدة يفعل .. لن أتحمل معاودة حملكم ثانية » .

تذكر أحد المصابين تعلق به ، يطلب منه زمزميته المعلقة فى قايش بنطاله .. فتخابث وافتعل الغفلة ، تركه وذهب بعيداً .

على غير توقع صاح فى زوجته :

« افتحى جهاز التكييف يا عزة ...، أشعر بالاختناق » .

« مفتوح على أعلى درجة !»

لم تشأ أن تزيد ، وإن بقيت محدقة نحوه فى صمت . اقتربت من عينيه ، سألته دون أن تنطق ، فأجاب :

« التبس على ، قلت فى نفسى ، يحتمل أن يكون الجهاز مغلقاً !!»

* * *

رتابة الأيام والليالى جعلته يعجز عن حساب عددها ، تلك الرتابة التى جعلت عامل مصعد المستشفى فى انتظار الزوجة كل صباح ، للقيام بمهام اليوم الجديد .. شراء الجريدة وبعض الكتب التى تظن أنها تليق باهتمامات زوجها . ربما تسعى لأن تجذبه إلى دائرة يحبها بعيداً عن الألم ، لم تكن تعلم أنها بذلك تشجعه على السقوط أكثر فى دائرة ألم جديدة .

الرتابة تلك جعلت انتظار الزائرين من مهام العمل اليومية للزوجة ، لعلها بذلك تخرج من دائرة ألم ملاحقة زوجها وحدهما ، فلا تلحظ ملامح انهياره لحظة فلحظة .

بعض الزوار بدا معذباً بتلك الزيارة ، ومع ذلك يعاودها ، كما الفراشة التى تنجذب إلى نور النار فتسقط فى لهيبها .. منهم من لم يخفف دمعاته ، وفضل الاكتفاء بالاتصال التليفونى ... ومنهم من لم يره فى فترات الصحوة جاء لأن فى زيارة المريض ثواب لا يتركه مؤمن صادق الإيمان .

أما أصدقاء القمر من الزوار ، فقد عرفهم للمرة الأولى وإن كان منهم أصدقاء عمره !.. يدخلون الغرفة فى صمت ، يجلسون على أقرب مقعد ، يمضون الوقت دون كلمة واحدة ، يختمون صلاتهم ، يسقطون أنظارهم عن سماء الغرفة ويذهبون .. كأنهم يقولون : «ياشمس أوجاعنا ، خبيئة أنت خلف العيون والألسن » .. ولا يدرون أن الخبيث المسجى على سريرة ، قرأ كلمات كتابهم كلها ! .

* * *

واتته صحف قديمة ، تمنى ألا يطالعها ثانية ، فرضت وجودها عنوة . طالع ذاك الذى يحتفظ بوظائف شتى ، لا يتحملها بشر .. أشاح بوجهه .. قرأ عنوة :

.. القبض على رئيس البورصة وبنك الائتمان الزراعى ووكيل وزارة الزراعة ، وثلاثين وظيفة قيادية أخرى .

أقسم لنفسه أن السير فوق الماء أهون مما يقرأ عنوة ، عن ذاك القاتل بلا هدف إلا القتل .. قرأ :

.. طالب مفصول من الدراسة بأمريكا ، اقتحم مدرسة للأطفال ، وأطلق النار عشوائيًا على التلاميذ الصغار .

أما وقد انتابته رعدة لا يدرى سببها ، ألقى الجريدة التى واتته :

.. « بوش » يعلن أمام الصحفيين وكاميرات المصورين ، كان سائراً ولم يتوقف لشرح وجهة نظره يقول : « إنها حرب صليبية جديدة .. ما حدث لن يمر على الإرهابيين وأعوانهم ومن يأويهم فى بلاده .

ربما نسى أنه أول من أزى أمثال هؤلاء ؟! .. فلما اقتربت زوجته تسأله إن كان يريد شيئا منها ، أسقط الجريدة ، كل الجرائد عن رأسه

* * *

بدا وكانه سقط فى هوة النوم اللذيذ ولم ينتبه لخطوات الطبيب المعالج . قال الطبيب كلاماً كثيراً بطريقته الواثقة المطمئنة .. ثم خرج حتى دون أن يغوص بأصابعه فى بطن المستكين أمامه .

أقسم لزوجته أنه لم ينم ، كان يدبر أمراً فى رأسه .. لم تفهم ولم تشأ أن تسأل . لكنه علق بعد فترة من غروب الرجل عن وجهه :

« لم أكن على ما يرام حتما . كنت أفكر فى قصة أكتبها .. أود لو أستطيع !! » .

* * *



معذرة يا سيد اللذة

إليه انساب درب اللذة فانتشى ، لم يصمت كعادته كلما قدمت الممرضة التى يجهل اسمها . أول ما جذبه فيها صوتها الذى يشى بحنية فى قلبها تكفى العالم كله ! . وربما بسبب « المجال المغناطيسى »، أو « الأورا » ، أو « الكهربية الحيوية » ، أو اللهب الروحانى » ، أو «الإحساس الطليق » ، « أشعة الحياة » . أيا ما يكون الاسم ، يعرفونه منذ قديم الزمان : ذلك السيال المنطلق من أحدهم إلى آخر حاملا فكرة أو رغبة من العقل الواعى أو الباطنى . رسموه على هيئة مجال إشعاعى حول المرء ، بيضاوى الشكل من الرأس حتى القدمين .

انتهت من وخزات الإبر ، افتعل غضبة بسبب ذاك الممرض الصامت « على » !، وجده موضوعا مشتركا مناسبا فى حضرة الزوجة . فوجئ أن شاركته اللعنات وزادت ! . لم يجد الممرضة الحنينة فى عجلة من أمرها كعادتها فى مرات سابقة .. شجعته أكثر لأن يثرثر ، ففعل وزاد دون أن يدرى أو حتى يدرى أن زوجته إلى جواره !

فيما بعد ، اعتذر لزوجته بعينيه صامتًا عن طول فترة تجاهلها ، فوجئ أن سمعها تقول للممرضة:

« لم أجده مستعدا للحديث مع أحد ، كما أراه معك ، اجلسى »

.. جذبت المقعد الوثير المكسو بالجلد الأبيض .. وكانت صادقة الى حد الإصرار . نفذت صاحبة هالة السيال الجميل ، ثم انشغلت طويلا بارتشاح دموى فى عضده تتحسسه وتتفحصه وقد

اعتلى وجهها الهالة ملامح القنوط من أفاعيل « على » الكاذبة . . ولم تخرج من الغرفة قبل أن مسحت عنه ببلسم يدها وعينيها السوداوين بالمرهم الارتشاح العادى والمعتاد فى مثل تلك الحالات .

لم يشأ أن ينظر إلى عينى زوجته أغمضهما ، شرد قليلا . . قال فى نفسه : « أقسم أن مشاعر اللذة والألم متلازمان ، بل وينشط أحدهما الآخر . . كلاهما خبرة حسية وشعورية . . أقسم أنك صادق يا صاحب كتاب « روضة المحبين » ، قلت إن اللذة تابعة للمحبة فى الكمال والنقصان . . وإن اللذة والألم ينشآن عن إدراك الملائم والمنافى، وأن الإدراك سبب لهما .

* * *

مثلما أمضى بوذا سبعة أيام عار على جلسته القرفصاء تحت شجرة التوت ، وصبر حتى تلاشت الأعاصير والأمطار وصفا الجو . . فعرف سر الألم واللذة . انقضت الأيام السبعة الأولى له فى المستشفى. بدت له وكأنها زمن الرحلة معهما ، ونفرت عروق رأسه بكل ما قرأ وسمع وعاش !

لم يختف الألم ، نعم . . لكنه أقل وطأة ، بدأ الألم شديداً ، شعر وكأن بطنه جوفاء ، ثم أصبح أقل وطأة فبدا ألما باردًا لشعوره برغبته فى الدفء ، ثم هان قليلا مع الوخز بالمسكنات والمحاليل فأصبح ألما تشنجياً ، موصولا بمغص ، ومازال على حال الألم الثقيل . . يأمل لو يهون !

تعلق بشفتى الطبيب ، صاحب السيال الصوفى واللحية المهذبة بامتداد الشارب حتى أسفل الذقن ، وقد سأله حالا :

« أى خطأ ارتكبته حتى تلبسنى الألم يادكتور .. بحر مائى من الطعام والشراب ، وبوخزاته ، وبشعورى بالعجز ؟!! »

حانت بسمة مطمئنة من الطبيب الصوفى وقال :

« لم تخطئ ولا أبواك .. فقط لنرى فيك ولترى فى نفسك .. أعمال الله وإرادته »

أزاح المريض حديثه إلى ما يريد لعله يطمئن قليلاً ، قال :

« هل أوضحت أشعة الباريوم على القولون جديداً ؟» .. « ليس بالضبط ، يجب أن نتابع البحث .. لا تقلق » .

... « زهقت !!! »

لم ينتبه لغروب الطبيب ، انتبه أكثر للذة كف ناعمة حنينة يعرفها ، كانت تربت على كتفه !

ود لو يرد لها ما تفعله معه ، بأن يشاركها ما فى رأسه : يقسمون « اللذة والألم » إلى ثلاثة أقسام .. القسم الجسمى وهو الطعام والشراب ، والوهمى وهو المنصب والجاه ، والعقلى وهو الجمال وأصحاب العلم والفضيلة .. وقالوا إن العقلى أفضلهم ويبعث على السعادة والرضا ، أما أنا فأقول : اللذة والألم الجسمى نعمة من الله ولا يجب أن نقلل من متعتها وجمالها .. هأنذا محروم منها وأشعر بالحزن .

.. بعد فترة صمت تابع :

« وإن كنت أقدر اللذة والألم العقلى !!» .

* * *

روادته رغبة أن يعيش قسم اللذة والألم العقلى .. مضطر !! ، أحد أصدقائه الأدباء اقترح عليه فكرة الانشغال عن حرمانه من الطعام والشراب بممارسة « الاسترخاء » و « التخيل » كما يفعل أهل «اليوجا » . قبض على جفونه وذهب وحده .

لا يدرى لماذ تذكر واقعة « الحفرة البرميلية » . عندما أطلق الأعداء عليه دفعة من مدفع رشاش سريع الطلقات . كان فى طريقه إلى الملجأ الخاص لإحضار بعض الكتب لسلامة موسى ، ورواية « آنا كارنينا » لتولستوى . هان عليه الرحيل بأوامر من قائد المستشفى الميدانى بعد اشتداد الحصار ، ولم يهن أن يترك الكتب التى يعشقها ! .

لم يفكر طويلا فور إحساسه بالخطر ، رشق جسده فى الحفرة القريبة فوجئ بسقوطه فوق كتف أحدهم ، سمع صوتا مبحوحاً شحيحاً :

« ما تخافش يا أخويا .. ما تخافش يا خويا » .

استسلم لذراعى الجندى تجذبانه إلى أسفل ، وبكل طاقته حك هو جدار الحفرة بكتفيه وعجزية ، فالحفرة لا تكفى إلا لأحدهما

بالكاد . أخيراً نجحا التصقا إلا من وجهيهما ، فلما يحلق فى وجه صاحب الصوت الشحيح الذى يدعوه بعدم الخوف ، عرف كيف يكون للخوف وجه وملامح وقد كسته الأتربة ؟

تابع الملتصق به :

« حاولوا قتلى قبلك لا تخرج من هنا ، أنا هنا منذ الصباح ، قادم من كتيبة النقل المجاورة ، تركوا سيناء كلها ، واجدعنوا على الوحدات الإدارية غرب القناة » .

فشل الرقيب الطبى فى إقناعه بالخروج من الحفرة والاحتماء بجماعة أفراد المستشفى والتصرف معا . فتركه وحده مرشوقاً فى الحفرة وخرج .

تذكره الآن فقط لأنه عندما عاد مع أفراد الوحدة من جديد إلى موقعهم فى شهر يناير من السنة التالية ، أسرع وحده إلى الحفرة .. لم يجد الجندى الذى احتواه وألصقه بجسده ، لكنه لمح بعض العظام وجمجمة ، فقال لنفسه لعلها لقطة ، أدار وجهه وانشغل .. لكنه الآن يؤكد أن العظام الكبيرة التى ضمتها الحفرة ، لم تكن لقطة أبدا !!

بدا منتبهاً تماماً وقد أفرج جفونه ، تمنى لو يستطيع أن يبكى ، فضل أن يسأل زوجته لعله يشغل رأسه وصدره :

« يحتمل أن أتهم نفسى بالتقصير مع الجندى ؟!

لم تفهم ولم يشأ أن يبوح لها بسر سؤاله ، ولم تعقب الزوجة الذكية .

* * *

يبدو أن الزوجة فضلت أن تدير الحديث بعيداً عن موضع الألم الذى ألم بزوجها فجأة ، قالت بعد أن القت بالجريدة بعيداً :

« جددوا حبس صاحب الثلاثين منصباً .. الموضوع جد »

.. لوى شفتيه ، فتابعت :

« من أين واتته تلك الثقة والشجاعة ليقول : « سوف أتكلم وأقول كل شىء » .

راوده تساؤل لم يخطر على باله من قبل :« هل مرضى هذا بسبب التسمم من أثر المبيدات الزراعية شديدة السامية التى استوردها ؟!» .

لم تعقب .

يبدو أنها فضلت الانتقال إلى موضوع آخر ، قالت :

« متحدث رسمى مصرى يعلن أن مصر ملتزمة بالشرعية الدولية لتجنب استخدام القوة .. بينما يدعو « بوش » فرنسا وروسيا والصين المشاركة فى مواجهة الخطر العراقى !» .

أشاح بوجهه لتتابع وحدها :

« ربما من الأفضل أن نقرأ حظك اليوم ونرمى الجريدة » .

فلما طال صمته ، مالت نحو وجهه حتى شعر بسخونة بشرتها

، تقول : « بدك فى شىء ؟»

« فيك » !!

تبادلا قبلة طويلة .

* * *

معذرة يا سيد الطعام

فضوله فاض وغلب كل شيء ، اجتاز كل الحواجز ، بارح حدود جسده المنهك ، غاص بعيداً يبحث عن مقهى الأصدقاء فى لقاء الثلاثاء الأسبوعى .. عن مكتبه الذى يقضى الساعات إلى جواره ، ربما أكثر مما يمضى بجوار زوجته .. عن أبواب المقاهى والسينمات وقاعات الندوات .. عن بحر الإسكندرية الذى جاوره طوال أربع سنوات مضت .

فضوله اجتاز كل الحدود ليبحث عن طبق فول بالليمون والبصل وزيت الزيتون .. يبحث عن فنجان قهوة الصباح والمساء .. يبحث عن سيجارة يلتهمها .. يبحث عن روائح الشواء والقلى وحتى سلق اللحوم والأطعمة .

* * *

قال الإمام الرازى عن « البصل » :

« إذا خلل البصل قلت حرافته ، وقوى المعدة .. والبصل المخلل فاتق للشهوة » ..

« نصف كوب من عصير البصل مع كوب عسل ، يغلى حتى يتبخر البصل وينعدم رائحته . تؤخذ جرعة منه بعد كل وجبة .. يستخدم للقوة التناسلية » .

« أكل البصل مشوياً بالفستق مع طلع النخل والعسل .. يقوى الباءة » ..

« تطبخ شوربة البصل بنخاع العظام ، تشرب كالمرق فى الغداء يومياً ، يقلل الإحساس بأى ألم» .

وقال ابن البيطار عن البصل :

« البصل فاتق لشهوة الطعام ، ملطف ، معطش ، ملين للبطن ، إذا طبخ كان أشد إداراً للبول ويزيد الباءة إن أكل البصل مسلوقاً » . . .

. . وجدوا فى البصل فيتامينات وهرمونات مقوية للرجال . مادة «الكلوكنين » فيه تعمل عمل « الأنسولين» وتنظم السكر فى الدم . بالإضافة إلى « الكبريت » ومركبتاته التى تسبب إدماع العين ، فضلاً عن وجود بعض الخمائر والأنزيمات المنشطة للغدد .

قديما قال « هيرودوت » : البصل هو الكرة الذهبية ، عجبت للمصريين كيف يمرضون وعندهم البصل والليمون ؟

وعن « الحبة السوداء » أو « حبة البركة » حدث ولا حرج . . وصفوها للذة وزيادة الشهوة ومواجهة الآلام .

« مغلى الحبة السوداء واستعمالها مضمضة أو غرغرة يقلل آلام الأسنان واللثة والحنجرة » . .

« حفنة من الحبة السوداء مع سبع بيضات يومياً لمدة شهر ويمكن إضافة ثلاث فصوص ثوم بعدها . . يزيد الشهوة ويقلل الدهون فى الجسم . . »

« طحن الحبة السوداء مع « الحلبة » قدر كوب ، ثم يضاف قدر من « العنبر » المحلل ، يخلط فى إناء به عسل نحل .. وتؤكل كما المربى بخبز قمح يقوى الباءة » ..

وفى كل الأحوال عند الضرورة على المرء اتباع الآداب التالية دخول الحمام لقضاء الحاجة أولا .. يدعو الله قائلا : « اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى » .

وعن الثوم .. « يهرس الثوم ويسوى فى زيت الزيتون على نار هادئة حتى يصفر لونه ، يعبأ فى قارورة .. عند الضرورة يدهن به جذر الاحليل (العانة) بحركة دائرية ، ولا يغسل قبل ساعة .. فيزيد الباءة » ..

« نصف فص من الثوم على مكان الألم فى الفم ، يرفع ألم الأسنان ، يوضع فى صيوان الأذن جهة الفك المؤلم ، يرفع ألمه » ..

.. الثوم غنى بالفوسفور والمواد الكبريتية والكالسيوم ، محرض للشهية ويحرك جدار المعدة يحول دون تكون الدهون .. فيه شفاء من سبعين داء . للتخلص من رائحته تؤكل تفاحة بعده أو ورق النعناع أو مستحلب القرنفل .

وقال « رفق الدين البغدادى » فى كتابة « الطب فى الكتاب والسنة » عن العسل :

« ابدأ يومك بعسل النحل ، فهو ما قال فيه القرآن الكريم :

«يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس» (النحل-٦٩).

غازلته الأطعمة واختزلت إلى روائح غامضة تشاغله عن غير قصد . تواتيه رائحة البصل كلما ضاقت به السبل !. منذ يوم أن أخبرته أمه أنه ولد صامتا ، لم يبك كما المواليد ، ولم يبك إلا بعد أن دسوا بصلة في أنفه .

الرائحة الكريهة لأنفاس زميلة العمل لم يبررها إلا بعد أن علم أنها تتناول الثوم يومياً منذ عشرات السنين ، فطلب منها أن تكف عن فعلتها .. الآن يشعر بالندم على فعلته !

الرائحة الهينة الملساء لحبيبته التى كانت ، لم تبرح مناخيره . قادر هو على استحضارها وقتما شاء . فلما حضرت سألها :

« لماذا تموتين قبل الأوان ؟!»

ولأنها قليلة الكلام مطمئنة النفس .. ابتسمت صامتة وافتعلت انشغالها بشعرها الكستنائى الناعم ، ثم ذهبت ولم تذهب رائحتها .

أما رائحة أمه التى ظن أنه نسيها ، واتته ، كان قد حفظها خلال فترة غيبوبتها الأخيرة . ما كانت تتقبل علاجاً إلا بعد أن يجلس إلى جوارها ، يملأ أنفه برائحة الأمونيا المنبعثة مع أنفاسها ـ من جراء الفشل الكلوى الذى نال منها ـ يسألها أن تقبل أوامر الأطباء ، فتمد ذراعها وسط دهشة الجميع مستسلمة لشكشكات غير راغبة فيها .

فلما جاءته رائحة جده ، وهو تحت إبطه يحميه بالمعطف الأسود الصوف ، في طريقهما إلى المدرسة الابتدائية ، أيام الشتاء الممطرة .. ظن أن الروائح كلها ما خلقت إلا لحمايته كلما ضاقت به الدنيا .. فتمنى لو يبكى .. لم يبك !

* * *

قال أحد الزوار إن روائح ومذاق الفاكهة والخضروات ما عادت كما كانت ، باتت ماسخة حتى « الخيار » أصبح شائخًا بلا طعم . فعقب أحدهم بأن أهل العراق يصنعون الخبز من نوى البلح بعد الحصار .. وساد الصمت حتى تابع ثالثهم :

« بينما أمريكا تلقى الحبوب في المحيط بما يكفى سكان أفريقيا شهوراً » !!

علق الهامد على سريره :

« الأسمدة الصناعية والمبيدات مع الجشع والجنون .. السبب فيما نشعر به من مرارة في الحلق والقلب والعقل أيضاً » !

* * *

خلال زيارة تالية قال لهم : « لكن الألم نعمة ياجماعة !! »

.. رفع رأسه عن الوسادة متحديا صمتهم ، وتابع :

« في زمن الحرب ، ومع دخول الدبابات المعركة ، تلك التى

نقلوها فى جسر جوى من أمريكا حتى العريش .. زاد عند المصابين ، ولم تعد الأسرة تكفى ، حتى امتلأت العنابر والممرات الموصلة نحو المدخل . فى التاسعة مساء وقد ظننت أننى انتهيت من مهمتى ، اكتشفت أحدهم صامتا فوق المحفة .. لا يتألم !، سألته عما به ، أشار إلى بطنه ، رفعت الرباط الصوفى عن بطنه ، وجدتها مبقورة ، والأمعاء حولها !» . صاح يدعو كبير الجراحين ، عنفه لترك الرجل طوال تلك المدة ، برر بقوله : « لم يكن يتألم .. أو على الأقل لم يقل .. آه !! »

اضطر الطبيب للضحك ، ومنذ ذلك اليوم البعيد ما عاد يعبأ بأصحاب الصوت المرتفع ، القادرين على التألم .. اعتنى أكثر بمن لا يصرخ ولا يقول « آه !!

* * *



معذرة يا سيد الليل

الليل الذى يبدأ ثقيلاً يجيء غواية يدعوه إلى المنفى إلى الزمن الغائر فى شعر رأسه ، وقد بات مبرقشاً ، وفى شقوق هينة حول عينيه وزاويتى فمه .. فقط لأنه عاش فى هذا الزمان عمراً ، مرأ .. لم يبق منه سوى فحيح النهاية .

* * *

ما كان يدرى أن حالة « الزغطة » التى تلبسته مثيرة للقلق .. كلما اتصل به ابن عمته الطبيب من المدينة البعيدة يسأله عنها ، ولا ينتظر رداء تأتيه الإجابة جلية ، فالمسجى لا يستطيع متابعة جملة واحدة غير ممزقة بالزغطة .

ما استطاع كبح جماحها ، افترسته وهو فى طريقه إلى المستشفى .. عفوا تتقلص أحشاؤه ويعلو صدره قليلاً .. مع صوته شهقة خبيثة . عامل مصعد المستشفى ، الصبى العفريت انتابته ضحكة ساخرة طويلة ، لم يخفها مع نظرته الدهشة .

كان إيقاعها مع خطوات بين ردهات الدور التاسع .. أمراً مضجراً . بات يتبعها لحظة بلحظة وكأنها المرض . ما كانت كذلك ، بل لعبة يلعبها مع أصدقائه الصغار ، حتى عندما ينصحه نبيه منهم بشرب جرعة ماء .. يرفض ، سعيداً بإيقاعها المنتظم ، وربما لأنها شددت انتباه الجميع من حوله !

* * *

في الليل دخل المستشفى ، وهو لا يدرى سر قلق الطبيب الذى استقبله !

في الليل شاهد تلك الفتاة النضرة الممتلئة ثقة وحيوية مصادفة، وما كان يدرى أنها قدره وهو قدرها .. فتزوجها !

في الليل قادته الطائرة للمرة الأولى إلى البلاد البعيدة ، وفيه تنقل بين الفنادق هناك ..

في الليل أدى مناسك العمرة ، فلا يطيق أحدهم أداء مناسكها مع حرارة شهر أغسطس نهاراً ..

في الليل عاش الخنادق والخيام ، أيام الحرب التى تراوده عن نفسها دوما !

في الليل ماتت أمه ثم حبيبته التى لم يلق النظرة الأخيرة لأنه رفض اللقاء الأخير .. ثم مات أبو ه ، وهو لا يدرى لماذا يموت الناس ليلاً ؟؟!

في الليل كثيراً ما يشعر بالجوع .. للطعام والضحك والكتابة واللذة ، جعله المشتهى .. أكثر كثيراً من نهار أيامه !

وكان يونس في بطن الحوت ، يعيش ليلاً دائماً !

أصبح الليل عنده منفى كل شيء .. ما عاد شمسا وضاءه تكشف الأسرار كلها !

تعلو أصوات الأنين من الغرفة المجاورة لغرفته ، كأن صاحبها الأواه يرتل تراتيله كلها ، ولا يدرى لماذا تبدو هكذا جليه ليلاً ؟

فى كل مرة يسأل فيها أحد طاقم التمريض الذى يقتحم عليه ليلته لرفع عبوة المحاليل واستبدال أخرى بها .. يسأل :

« بماذا يعانى هذا المسكين ؟»

يجىء الرد فى الظلمة :

« خليك فى حالك !»

فيما بعد فسر الرد الجاهز بسبب الإرهاق ، لكنه أيقن أنهم يسخرون منه ، أو هكذا اعتقد .

ليل الغرفة ٩٠٨ غير أى ليل ...

كان يرى شبح المبنى الضخم من زجاج النافذة الموصدة فيبدو كشاهد مقبرة . عرف أنه يعلو المستشفى الضخم الذى يقيم فيه ، ومع ذلك تسكنه الأشباح . تملكه شركة توظيف أموال أعلنت رفضها رد أموال المودعين !

فضل ألا يرمى بصره فى الظلمة إلى النافذة ، ولا الانشغال بالظلال التى يراها خاطفة مسرعة ، هاله أن تكون لطيور قتيلة تسقط .

لولا الإحساس بالشفقة على ما بذلته زوجته من جهد طوال اليوم، لصاح بأعلى صوته لأن تنهض من نومها لتتحدث إليه أو حتى

تبقى صامتة كانت تغط مع أنفاسها العميقة الرتيبة فى هدؤ لا يمثل قدر لهفتها واضطرابها لو همس باسمها منادياً ، تبدو وكأنها ما كانت نائمة ولا حتى مع الكرى .

كانت الغرفة منسقة ونظيفة ، لكنها مفتوحة السقف والجدران ، مستباحة لريح الليل وهواجسه ، ولضوء القمر الخبيث ، ولأحذية الممرض الذى دخل حالا حاملا حقنة شرجية يقول :

« اتصل الدكتور عمرو الآن ، وطلب عمل أكثر من حقنة شرجية حتى الصباح . .

سوف يجرون لك منظاراً آخر على القولون فوراً

* * *

بالبكاء العنيد كان يقاوم أمه يوم رشقت مبسم الحقنة الشرجية فى مؤخرته صغيراً بالنشاط والهمة كان يمرض أباه يوم رشق نفس المبسم فيه قبل رحيله بناء على نصيحة الطبيب .

بالضحك الشقى كان يمزح مع أصدقائه الصغار ، ويهددهم بوضع الحقنة الشرجية كلها فى مؤخرتهم إن تشاجروا معه !

الآن يبدو مستسلماً لرحيل الأيام التى كانت ، ولمهمة الممرض فى عمله .

* * *

أمضى الليل على يقين أنه ليل بخيل وإن طال روادته أشباح أمواته كلهم .. أمواته فقط . صديق طفولته الأولى الذى ذبحته سيارة مسرعة ، صديقه الشهيد الذى اختارته شظية مكتوب عليها اسمه ، بينما كانا متجاورين .. وأناس غيرهما يتجددون كل ليلة . فقال فى نفسه .. ربما بسبب المبيدات السامة أو بسبب الحرب على العراق التى لم تبدأ بعد !

* * *

مع شقشقة الفجر ، انتهت مهمة الممرض وهو يرود فى نفسه :أنا لم أزل طفلاً ، يجب أن أخبئ أحزانى تحت جلدى !!

* * *

معذرة يا سيد البشرى

بين ارتيـاد الألم واللذة وانتظار الرضـا ، كـابد الخطر . زاده الشوق اشتياقا .. للحب الذى يعرفه العاشقون ، للتحمل الذى أثبت ضعف جسده ، للتأمل الذى جعله يرى ما خلف جدران الغرفة ، وما تحت جلده وداخل جمجمته ، بل ويكتشف ما فى نفسه المسجونة فى جسده .

ما عاد يملك غير الرجاء ...

* * *

فى صباح اليوم الثانى عشر ، أصبح كل شىء حوله غير محتمل . المرتبة التى ينام عليها غاصت ، الكوميدين امتلأت بأشياء تخصه ولا تخصه ، الخراطيم الموصولة بذراعه وبطنه ، السكون الممزق بآهات أحدهم فى الغرفة المجاورة ، البياض الباهت الذى بلا معنى للحوائط وملابس الممرضين .

كل شىء من حوله هادئ إلا رأسه ، نفر جسده فجأة بعصبية ، رسم جسده زاوية قائمة . فأدرك فى تلك اللحظة الجهنمية ، أنه كان شغوفا بحسده إلى حد الجنون .. ولم يسأل نفسه : لماذا ؟؟

لماذا كل شىء .. أن يكون جسده طهوراً ومدنساً ، وربما مقدساً أيضاً .. يراه أزليا وهو موقن بالزوال ؟! .

كـان جـسـده كل مـا يـملك فى هذا الكون .. يملكه بحق ، ومساحة وجوده المتحقق . لا ينسى يوم ضبطته أمه فى ركن الغرفة منطويا على نفسه ، يكتشف سيف الذكورة فيه . وإن ابتسمت لم ينس قدر الورطة ، لم يستطع تفسير وقفته نصف عار أمام المرآة ، حتى الآن مازال يشعر بالورطة !

حرضه جسده على اكتشاف سر القبلة والرائحة واللمسة وأطراف اللذة كلها ، جعله فى مواجهه المهالك ، ويرى فى الألم لحظة قاسية ومقدسة معا !

جسده المحرض جعله منتبها حتى الآن لأن يتذكر النهاية ، كل النهايات حتى سديم الأكوان البعيدة .

ما عاد يدرى .. هل يعيش الآن لحظة انتظار النهاية ، لأنه أدرك حدود جسده وإمكاناته ؟ أم لحظة فتوح لم يقرأ عنها من قبل .. يعيشها ويقبض عليها .

* * *

فور أن اقتحمه « محروس » كعادته ، سأله إن كان معه كتاب الكلمات المتقاطعة الذى يحمله دوما فى بنطاله . كان قد أخبره عن أسرار تلك اللعبة .. وكيف أن جريدة الأهرام تكرر لعبتها ظنا منها أن أمثال محروس غير منتبهين ؟! وأن الجرائد الأخرى أكثر حرصا وتطويراً لها . حدثه طويلا عنها وقد شاعت بعد معارك ٦٧ ولا يدرى لماذا ؟

كان دوما يرفض اللعبة ظنا منه أنها لا تكسب المرء ثقافة حقيقة ، وتأكد ظنه بمهارة الممرض فى حلها دقائق ، والسر فى ذلك تكرار المعلومات . الآن يسعى لأن يمارس اللعبة ، ولا يدرى للبحث عن مثير آخر غير مرضه ، أم رغبة منه فى التخلص من جبرية الحياة التى يعيشها منذ أن اعتلى سريره هذا ؟!

لم يهتم الممرض بما طلبه منه العليل ، جالس سريره . اهتم أكثر بما لاحظه فورا .. سقوط خرطوم الرايل !!

انتبهت الزوجة ، نفذت أوامر الدكتور عمرو فورا .. أن يتناول المريض فنجانين أو ثلاثة من الينسون أو النعناع ، ولاحقت قسم التغذية لتنفيذ المطلوب . فلما شربها كلها ولم يتقيأ .. كانت البشرى التى زفتها لكل زوارالنهار وأول الليل !

* * *

أسرع إليه الطبيب .. فحصه مليا ، وكرر أسئلته القديمة كلها .. لوى شفتيه وخرج صامتا . تابعت الزوجة « الرقى » كعادتها وشقيقتاه كل صباح ومساء . وضعت يدها على بطنه (موضع الألم) تمتمت بكلمات لم تبين له .هذا الصباح سألها :

« ماذا ترتلين ؟ »

ردت وهى تتابع مهمتها بهمة وإخلاص :

« بسم الله الرحمن الرحيم ثلاث مرات .. ثم أقول أعوذ بالله قدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات ، وأتابع بالصمدية والمعوذتين قدر ما أستطيع »

* * *

لم تكن المرة الأخيرة التى يعاود فيها التقاط صور جديدة بالأشعة على البطن (نائم - واقف) ، مازال الطبيب يبحث عن شىء ما فى رأسه .

صادق أغلب العاملين بقسم الأشعة ، إلا ذاك الطبيب صاحب الطلعة الوقورة الذى مازال يتصيده .. فى كل مرة يطل من برواز الباب الموارب ، ثم يخرج ، ويتقدم نحوه فى هدؤ .. يربت على كتفه ويرمى السلام . إلا تلك المرة ، سألة :

« رجعت الينسون ، تقيأت ؟! » .

فلما سمع كلمات النفى ، وقد استرسل العليل فى وصف ما تناوله .. ابتسم بسمة عريضة ، ربت على كتفه للمرة الثانية ، ثم ذهب صامتاً . كانت بسمته هذه المرة وبعد أربعة عشر يوماً غير كل المرات السابقة .

* * *

عاد وأخبر زوجته بما كان منذ قليل ، ابتسمت قائلة :

« خيرا »

لم تنتظر لتسمع منه أكثر ، لاحقته ضاحكة ، ثم صاحت قائلة :

« نائب الكنيست الإسرائيلى « محمد بركه » طردوه لأنه قال إن الفلسطينيين ليسوا نعاجا فى مزرعة « شارون » .

ابتسم هو أيضا !

سألته إن كان يريد منها أمراً ، لم يعلق ، تابعت وحدها وهى تقلب صفحة الجريدة قائلة :

« قبضوا على اثنين من الزنوج الأمريكان ، يحتمل أنهما وراء القتل فى واشنطون . الأول شابٌ فى العشرين اسمه « روهان مالفو » مع زوج أمه وانتبه جيدا لاسمه « جون .. دانيال .. محمد » !!

ولم تسمع تعليقا ، تابعت بأنهم جددوا حبس مسئول وزارة الزراعة أربعين يوماً . ثم شغلهما « محروس » أكثر ، جاء وبين أصابعة ورقة كراسة مكتوب عليها .. « محروس حماد .. (نجم التليفزيون والسينما مستقبلاً) مع أرقام تليفونات المستشفى !

« هل تعنى أنك ستغنى فى التليفزيون ؟ »

« بل ظهرت على شاشة التليفزيون ، وكل من فى المستشفى يعرفون ، ويعرفون أن مثلى الأعلى هو الفنان شعبان عبد الرحيم »

« .... »

« تسمعنى ؟ »

« أسمعك »

كان صوته جميلا بحق ، أو هكذا استقبلته أذن العليل هذه المرة، حتى أنه رفض العودة إلى السرير وبقى جالسا على المقعد المنجد بالأبيض .

* * *

شد انتباهه للمرة الأولى ، ذاك الشيف صاحب التوك أمامه على شاشة التلفاز يرفض تلك البرامج ، مدعيا بأنها تسخر من عقول وحافظة نقود المشاهدين .. كان يعتقد ذلك ، الآن طلب ورقة وقلما ، كتب طريقة إعداد طبقٍ للحلوى لم يذقه من قبل .. !

بودرة كريم شانتيه ، مع جيليه ، وعصير فراولة .. معا فى الخلاط الكهربائى . يصب الخليط فى كؤوس زجاجية ، يوضع على سطح كل كأس حبات من الفراولة والكريز ، وشرائح من الكيوى والشكولاته .. ثم توضع فى الثلاجة لمدة ساعة !

فلما انتهى من انهماكه ، سألته زوجته عن « البصارة » التى زرعها خياله من قبل .. ابتسم وأخبرها بأنها ستصنعها وهى إلى جواره فى المطبخ فور عودتها !! . لم يشأ أن يخبرها بأنه بدأ يعانى من الجوع أكثر كثيرا من الأيام الأربعة عشر الماضية .. وأن ما تناوله من ينسون ونعناع وجيلى لم يجب عن أسئلة أمعائه الخاوية .

* * *

لم تتنازل شقيقتاه وزوجته عن ممارسة « الرقى » فوق موطن ألمه الذى قل كثيراً . فى كل مرة .. يغلق عينيه ، يغمره إحساس غريب بالتلاشي والاستسلام . لا ينتبه بما يرتلونه ، ومع ذلك فقد القدرة على التخيل ، كم حاول اصطياد ذلك الطائر الأسطورى الذى يحمله عنوة الى غرفة نومه ، مكتبه ، أصدقائه الألداء ، بحر الإسكندرية .. إلى الدنيا التى يتمنى أن يعرفها ، كأنه ما عرفها من قبل .

فلما رفعت التى تمارس مهامها .. يدها ، لم يفرج جفونه ، ربما لإغرائها أن تتابع ، وربما لعدم رغبته فى رؤية الغرفة .

صاحوا باسمه لاستقبال الدكتور عمرو الذى وجده مبتسما مطمئنا وما إن هم لسؤاله حتى اعترض الطبيب :

« لا تسألنى عن سبب الحالة التى انتابتك لأسبوعين ، ولا كيف شفيت منها .. أظن أنها نوع من الابتلاء ؟! »

استسلم الذى رفض البقاء نائما على السرير ، مفضلا الحديث مع الطبيب من فوق المقعد الأبيض .. ولم يسأل حتى انقضت فترة .

تابع الطبيب :

« ربما بسبب ما رأيت الآن .. ممارسة الرقى فوق موطن الألم ، هون الله عليك .. و ....

وأزاح السبب عنك ...

لتزداد حيرتي في حالتك ...

ولتطمئن أنت ...

وهذا يكفيني ويكفيك .. الآن على الأقل »

فابتسم الذى كان مريضاً ، وقال :

« وأنا أيضاً يكفيني .. ولكن إلى الأبد »

* * *



رواية قصيرة

انتظـــار

ربما نتقابل مع أناس لا نعرفهم ، فلا ننساهم أبداً ، وإن كان ذاك اللقاء للحظات قليلة . فما بالك أن أقص عليك لقاء دام سنوات مع مخلوق غريب عجيب .

قابلته في المرة الأولى وسط جموع المجندين الجدد في ساحات مركز التجنيد الرئيسي في القاهرة . كان ضمن أفواج بلا حصر تقذفها السيارات الزل في الساحة . التقطته من وسط الآف الأجلاف من ذوى الجلاليب المتسخة ولعلها الممزقة . تساءلت بيني وبين نفسي : « ترى هل يمكن لمثل هؤلاء تحرير سيناء التي احتلت منذ سنوات قليلة ؟ »

* * *

لم أكن وحدى ، الذى انتبه له .. هو بالذات . كيف لا ينتبه الجميع ، بينما صوته الأجش الخشن يغنى النشاز بعينه ؟! ، يقول :

« برهوم كان حشاش
عنده جوزه نحاس
باعها وجاب رصاص
يحارب عدوه »

« أى والله » .. يرددها هكذا ، يغنى الفقرة ثم يقسم بالله !!

ويكررها ، بلا ملل ، مع تعليقاتهم الساخرة ، وهم يلعنون أهله وناسه .. ثم يبتسمون !!

إنه هو .. أكيد « الحجاجي يوسف » الذى أعنيه ووجدته أمام عيني في كتيبة المشاة على الجبهة . لم نحضر سوياً ، فقد تم توزيعي على مركز تدريب الخدمات الطبية ، بينما وزع هو إلى مركز تدريب المشاة . صحيح « حجاجي » من الوجوه التي لا تنسى ، ليس فقط بسبب سمرته والندب المحفورة على وجهه ، ولا حتى بسبب نظرة عينيه الغامضتين .. بسبب « برهومه » ، كان ومازال على حال غنائه وطربه الخاص ، ثم صمته الغامض .

أثار فينا التساؤل .. من برهومة هذا ؟ ولماذا ؟ بل لماذا تلك الفقرة بالتحديد من إحدى أغنيات فرقة « ولاد الأرض » .. كيف عرفها الصعيدى « الأقصرى » ؟ لم نعرف إجابة ، ولم يسع أحد لمعرفتها ، أما أنا فقد اكتفيت بنجاحي في أن تذكرته جيداً .

أدعي أنني عرفته أكثر مما عرفت زوجتي ، ليس لكونه أكثر بوحا وصراحة ووضوحاً منها .. أبداً . لأنه هكذا يجعلك تتعلق به فور تلاقية ولو لمرة واحدة حتى فى الطريق العام .

ما بالك أنني قابلته خلال أيام تجنيدى الأولى ، ثم لأكثر من ثلاث سنوات متواصلة ، ليل نهار ، أثناء فترة حرب الاستنزاف وحتى معارك أكتوبر عام ثلاثة وسبعين فى منطقة الدفرسوار ، وهى منطقة قريبة من مدينة الإسماعيلية ، على جبهة قناة السويس .

كانت الفترة الأولى للقائى معه كفيلة لأن أقص على مسامع الأصدقاء النوادر التي تتكرر منه ، والنكات التي لا يتفوه بها بل

تتساقط عفوا من فمه إذا ما نطق ، وقليلاً ما يفعل .. وإذا ما هم بتنفيذ أمر من أمور الحياة اليومية العسكرية ، أو لتنفيذ أمر من قائد الوحدة .

ماذا تقول في ذاك الجندى الذى ظل يحفر فى الأرض طيلة ليلة كاملة ، تنفيذاً لمقولة تتردد عفواً على ألسنة الضابط والجنود .. يقولون لأمثالنا من الجنود الجدد : « صفا .. انتباه

أحسن جنود .. عايز أحسن كمان .. عايز ضربة رجلك فى الأرض تطلع ميه » .

ويتحمس الجميع ، ينشغلون فى التهيؤ لضربة واحدة مشتركة معاً وقوية .. بينما ينشغل الحجاجى أكثر فى موضع قدميه . فيسبه الشاويش :

« يا عسكرى يا كويرك ، الخنزير وحده يبص على الأرض ، ويوطى رأسه ..

ارفع راسك يا عسكرى ... »

لم نكن ندرى أن الحجاجى انشغل فى موضوع تلك المياه التى لا تصعد من تحت قدميه ، بينما كانت ضربته على الأرض نسمعها حتى الصف الأخير من الطابور !

يسمع السباب الساخرة بأذنه ، ولا يبالى ، وعن نفسى أظن يقيناً أنه لا يسمع أحداً ، يسمع ما رأسه هو . . فقط !

ولا لماذا حدث ما حدث ؟

أخبرونى عن يوم وصوله إلى الوحدة ، وفور الانتهاء من طابور

«التمام» للحصر والجمع وتلقين التعليمات الأولى للجنود الجدد. كما المتبع وقف قائد الكتيبة، وكانت كلمات القائد، ثم أوامر الصول «سالم» قائلاً:

«على كل جندى تجهيز حفرة برميلية على أرض الوحدة حالا، مهمة تلك الحفرة هى حماية الأفراد ووقايتهم من ضربات الطيران أو المدفعية»

خلال فترة معارك الاستنزاف تلك، كانت الغارات الجوية، وضربات المدفعية بعيدة المدى، من الأمور المعتادة يوميا .. سواء على القوات المتراصة بطول خط قناة السويس، وفى العمق على مدارس الأطفال والمصانع. ولهدفين لا ثالث لهما، إما لمنع تشييد قاعدة مصرية للصواريخ المضادة للطائرات، وإما لقتل قطة تلهو وتتقافز غير عابئة بشىء على الضفة الغربية للقناة .. !

التلقين والأوامر تمت فى وقت قصير جدا مع تلك المجموعة الجديدة الشؤم، كما أطلقها عليهم زملاؤهم القدامى .. منذ اليوم السابق على وصولهم، لم يتوقف القذف العشوائى على أرض الوحدة، والمنطقة المحيطة .. ولم يتردد القدامى فى استقبالهم ساخرين:

«أهلا يا وش الخندقة والحبسة ..»

ولما تابع أحدهم بالسؤال الساخر:

نفسى أعرف النجس اللى فيكم، اللى جاب معاه الضرب المتواصل»

فانبرى « الحجاجى » وصرخ ، ونادراً ما يفعل ، قال :

« أنا جيت يا دفعه ، لزما ولا بد يعملوا حسابى !! »

طريقة رده وصوته ألجم الجميع بالدهشة ، لحظات وانفجرت الحناجر بالضحكات والتعليقات الساخرة . لم يكفوا إلا لمتابعة تنفيذ الأمر فوراً ، ببدء الحفر حفرة .

الحفرة بطول قامة الجندى كخندق يقلل من فرصة الإصابات المباشرة من أسلحتهم المفتوحة نحونا .

أما أن يقولها الصول « سالم » :

« أنا عايزك يا عسكرى تطلع ميه من الأرض »

ثم يدير ظهره ويختفى .. فما كان منه إلا البقاء ليلة كاملة فى تنفيذ المهمة طاعة للأوامر ، وقد صنع هرماً من الرمال ، وحفرة تكفى مائة رجل ، وهو ما أدهش الجميع !!

فلما سألوه عما فعل ، أجاب ببساطة التنفس :

« الميه بعيده !! »

لتصبح النكتة التى ما إن نتذكرها فرادى .. نبتسم ، وما إن نرددها معا .. نضحك . حتى بعد انقضاء الأيام والسنين .

هذا بالضبط ما حدث مع الحجاجى فى الساعات الأولى . لكنى ببساطة أحذرك أن تفسرها على أنه مغفل .. أقسم لك بثقة الواثق فى حنكة الأيام ، أنه لم يفعل ذلك إلا من فرط حماسته !!

* * *

أوقن أنك لو رأيته لمرة واحدة ، قد تظن أنك أمام مخلوق بلا أسرار ، ولا يسعك إلا الانتباه

لفقرة ، وأؤكد لفقرة أغنية « برهومة » تلك التي يغنيها ، ولا أحد يعرف من « برهومة » هذا ؟؟ !

ماذا لو انتبهت لكلماته القليلة إذا ما باح لك بما يجول بصدره وعقله . قليلا ما يفعل ، ليس كرها فينا . يظن الجميع أن « الحجاجي » مشغول بأحاديث مهمة في رأسه ، أهم كثيراً من أحاديثه معنا . تراه بيننا فلا يبغض مجلسنا أثناء لحظات احتساء شاي المغربية معا ، وكثيراً ما يسعى الخبثاء فينا ممن يجد اسمه في كشف الخدمة الليلية أو الحراسة ، فيطلب منه أن يقوم عنه بتنفيذ الخدمة .. وينفذها الرجل على أفضل وجه .

بمناسبة الخدمة الشاقة ليلاً وخصوصاً خلال فترة الشتاء ، لا تحمل لها هما ، فالحجاجي قادر على مواصلة الليل بالنهار في القيام بالورديات الثلاث (برنجي و كنجي وشينجي) ولا يطرف له جفن كما يقولون .

لو أنك أعطيته سيجارة ، وأخبرته بمرضك كذبًا وبهتانًا .. فهو يصدقك ويملك من الشهامة ما يجعله يومئ صامتاً وينفذ المهمة . أحذرك أن تفسر قبوله السيجارة التي تقدمها تفسيراً سيئا ، إياك أن تقع في هذه السقطة ، لأن الحجاجي ببساطة ينفذ طلبك ويقبل سيجـ .تك من باب الشهامة فقط ، وتعبيراً عن رضائه عنك وعن كذبتك .

دعونى أقـل لكم إننى لا أدعى الذكاء إلى الدرجة التى تجعلنى أبرر كل آرائه ، أو فطن فى تفسيرات علم النفس لأفسر كل سلوكه . الحقيقة أننى متحمس له ، ولأمر آخر أكثر أهمية ، وهو أن الحجاجى فعلا ليس أكثر من كتاب مفتوح عند الجميع ، لكن انتبه .. لا تفرط فى الثقة فى نفسك ، فلا يمكنك أن تحدد موقعك من نفس .. هل فى هذه الفئة أم من تلك ، وإن حاولت ؟ !

لو كنت كذلك من هؤلاء أو هؤلاء ورأيته لأول مرة .. فلا تتردد ، لا تتخابث ولا تكذب ، اعترف ثم انطق الحقيقة ، سوف يقدر فيك ما يفعل ، وينفذ طلبك ، وإن كانت إحضار « لبن العصفور » !

* * *

ماذا تقول أنت إذا ما تقابلت مع جندى أمضى فترة الأساس التى لا تقل عن أربعين يوماً فى إحدى مراكز التدريب التى تستقبل المدنيين وتؤهلهم للجندية . إنها فترة إعادة تشكيل البشر .. من المدنى « البعكوك » إلى الجندى المنضبط العتره .

أقول إننى أعلم أنه أمضى فترة الأساس بمركز تدريب المشاة والمعروف عنه أنه يقترب من مراكز تدريب القوات الخاصة فى الشدة والانضباط والجدة .. ومع ذلك فشلت كل كوادر المركز مع «الحجاجى » .. أن تجعله جنديا مهندم الزى ، عسكرى المظهر .

كنت أراه داخل الوحدة هكذا .. غير مهندم ، وقد اعتلت

الأتربة حذاءه ! نعم ، نعم .. إنه الحذاء المترب الذى تعرفه به . ذات مرة وجدته أمامى بمظهره غير العسكرى بالمرة ، وقد زاد عليه تلك البقع اللونية لأصباغ دهانات الحوائط !

فسألته كيف جاء من القاهرة ولم يسحب تصريحه العسكرى من نقاط تفتيش الشرطة العسكرية ؟؟ . لم أكن لأسأله عن دافع حبى للميرى ، فلست على هذه الدرجة من العسكرية أو الشخصية المنضبطة . كل ما فى الأمر أن غلبنى الفضول ، ذاك الذى أوصلنى إلى أهم ما فى شخصية الحجاجي وجعلنى أتعلق به ، كما أتعلق بصوت أم كلثوم أو أشعار كامل الشناوى .

تقدم نحوى فى تحد ، وإن غلفه الهدوء وطوته السكينة :

« هو إحنا حنحارب بالجزم ؟!! »

فلم أجد ما أعقب به ، ولا أردت أن أتفلسف عليه بما سمعته من معلمى مركز التدريب قبل وصولنا إلى أرض الكتيبة ، وقد أقسم أحدهم أن « البيادة » والخوذة سلاحان فى المعارك ، وأن المظهر العسكرى للجندى ، هو المكمل لمهاراته وتدريباته . أكيد سمعها مثلى ، لكنه أكثر قناعه برأسه .. لا بأس !

ما شغلنى ولم أقتنع به ؛ تلك الأصباع التى غطت على اللون الكاكى لملابسه ، سألته عنها :

« ومن أين لطخت تلك الأصباغ ملابسك ، من القاهرة أم الأقصر ؟؟ »

« ومن قال إننى كنت فى الأقصر أو القاهرة »

« أين كنت إذن ؟! .. أين قضيت أجازتك الميدانية ؟! »

« كنت في السويس ، وبكيت ياما !! »

« لماذا ؟؟ »

لم يجب ، فضلت أن أتركه فى حينها ، كيف ترى « الحجاجى يوسف » بجفون مرتعشة وغلالة لامعة تكسو كرتها ، فنرى قرص الشمس ، وكأنها شموس الكون كله .. ترى ما رأيت وتبقى هكذا محدق نحو . تركته إلى لقاء قريب .

فلما التقينا وحدنا فى مرة تالية ، ولا أعرف كم انقضى من الوقت حتى تمكنت من ملاقاته وحده ، وهو يغنى « برهومه » ، سألته :

« لماذا ذهبت إلى السويس خلسة يا حجاجى ؟ وما سر بقع الأصباغ تلك التى علقت فى بزتك العسكرية ؟؟ »

اكتشفت أنها لم تكن المرة الأولى التى يذهب فيها إلى السويس ، وهى تبعد حوالى أربعين كيلومتراً .. وعرفت سر اختفائه الغامض منذ فترات طويلة . قال شارداً : « الكابتن » غزالى « صاحب فرقة » ولاد الأرض « .. بلدياتى !! »

« ليس من الأقصر يا دفعة ؟! »

« لكنه صعيدى »

ابتسمت ، ولم أشأ أن أضحك كى أشجعه على البوح النادر ..

فتابع :

« غنيت معاهم وبكيت »

انتبهت أكثر كثيراً عمــا قبل .. كيف يبكى « الحجاجى » .. ولماذا ؟؟ ، تابع وحده :

اسمع :

« فات الكتير يا بلدنا

م بقاش إلا القليل

* * *

إحنا ولادك يا مصر

وعنيكى السهرانين

نصرك أصبح نشيدنا

واللى يعادينا مين

فِات الكتير يا بلدنا

* * *

بينا ياللا بينا

نحرر أراضينا

وعضم أخواتنا

نلموا .. نلموا

نسنوا .. نسنوا

ونعمل منه

مدافع .. ونداقع

ونجيب النصر .. هدية لمصر

وتحكى الدنيا علينا

فلما صمت ، تابعت مبتسمًا :

« الأغنية ناقصة يا دفعة ....

* * *

إلا قل لى يا دفعة .. هو أنت نسيت « برهومه » ...؟؟! »

لم يعقب ، وفضل أن يذهب . لن تستطيع أن تعدل من قرار يتخذه « الحجاجى » ، فقط صحت عليه ، لعلى أذكره بأنه لم يفسر لى سر الأصباغ ، وأيضا لم يرد ! !

* * *

دوما نصف سترته خارج البنطال ، والقايش مبروم حول بطنه ، كأنه حبل من الكتان لفلاح يعزق الأرض الشراقى ، كما أخبرتك . أما حذاؤه غير المعقود برباطه ، يبدو وكأنه لقرطة عساكر تشاركه فيه ، ليس له وحده .

جسد « الحجاجى » بأوصاف تخصه وحده .. فلا هو بدين ولا هو رفيع ، يقال عنه « ربعه » أو « مدكوك فى نفسه » كما كنا نطلق عليه . إذا ما رأيته لا تملك إلا أن نقول بما يقوله هو عن نفسه

« الحجاجي شديد » .

هكذا يتحدث عن نفسه أو عن جسده بالتحديد ، يتحدث عنه وكأنه يتحدث عن شيء غير متعلق به ، أو أنه لا يملكه ، أو فسرها أنت بمعرفتك فيما قرأت وعرفت .. إن استطعت

قادر هو على دفع سيارات الزل المغروزة في الرمال ، حتى وإن كانت مغروزة في رمال كومتها الأمطار . من منكم عاشر الصحراء أثناء فترة الشتاء وشاهد ما تفعله الأمطار إذا ما هطلت ، سوف يعرف تماما ما أعنيه . وإن كنت ممن لا يعرفون ، فلا عليك إلا أن تعرف أن السيارة « الزل » هي سيارة نقل جنود وبضائع .. الحقيقة إنها لنقل التموين والذخيرة وغيره ، وكنا نستخدمها في التحركات التبادلية بين نقاط الكتيبة أو حتى في أثناء المناورات أو غيرها من المهام العسكرية الكثيرة التي ما هدأت يوما حتى بعد وقف إطلاق النيران ، وبداية فترة «لا حرب ولا سلم . بالمناسبة ، الوحيد الذي لم يعترف أنه من المحذور علينا إطلاق قذيفة واحدة في الهواء ، فضلا عن إطلاقها على العدو الجاثم على الضفة الشرقية للقناة .. كان الحجاجي . تعمد أن يسرق بندقية الدفعة القناص « خميس وهو أحد أمهر قناصي الجيش الثاني الميداني ، وظل يتأمل ما بها من عدسات وأجهزة ، ونحن نضحك على نظراته الدهشة الغارقة في الإعجاب وكأنه يرى عروس البحر .

فاجأ الجميع وسرقها ، أسقط بها أحد الجنود الإسرائيليين من

فوق برج المراقبة هناك !! وقفت الدنيا ولم تقعد ، انقلب كيان الوحدة كلها .. مهما كانت الدوافع ، هذا السلوك مخالف للأوامر العسكرية الصريحة الذى اعتمدها « عبد الناصر » و « روجرز » فى اتفاقية « روجز » قبل وقف إطلاق النيران لمدة ثلاثة شهور !

ومع ذلك لم يفلح المحققون في اكتشاف المتسبب حتى تاريخه لسبب بسيط ، أن الحجاجى تعمد أن ينفذ فعلته من موقع آخر لوحدة أخرى تسلل إليها ، ولم يكتشفوا البندقية ، بينما كان عدد الطلقات سليما !! وحبا في صاحبنا لم نكشف الأمر للمحققين ، وإن عرفها كل أفراد مجموعة الملجا الذى يضم الحجاجى .. وأكيد كل أفراد الكتيبة كلهم ، وقائدها !

قرر القائد قراراً غير عسكرى ، ولا تفسير له إلا أنه يحب « الحجاجى » ومع ذلك يتوجس من تصرفاته الطائشة وغير المتوقعة ، والتى قد تعرضه شخصيًا للمحاكمة العسكرية . وإلا بماذا تفسر أوامره الصريحة له بأن يختفى تحت الرمال إن لمح ظله . صحيح .. هذا ما حدث بالضبط ، أمره بأن يفعل ما يفعله ، ويمارس تنفيذ أوامر بعيدا عنه ! .. ثم هدده مبتسما بأنه سوف يوقع على الجندى المتمرد جزاء لن يجدوه فى قانون الجزاءات العسكرية . برر القائد الأمر قائلا (والبسمة لا تفارق شفتيه) :

« مظهر الجندى حجاجى » وحده كفيل بتوقيع الجزاء ، فما بالكم بنظرته غير المكترثة والتى ترسل السخرية على الجميع ، وأيضا وهو الأهم أن الجندى ينفذ الأوامر بتفسيراته وأفكاره الخاصة .

لكنه جندى مطيع وله قدرة احتمال تفوق البشر ؟ ! »

فسر الجنود سلوك القائد معه ، وما قاله عنه .. بأنه مبسوط من حجاجى .

* * *

ظلت مع القائد على حالة التحفز تجاه الجندى الأقصرى الغامض الواضح . بعد مضى أكثر من شهرين على واقعة الأصباغ ، لم أعرف سرها .. كما لم يعرف القائد سر سلوكه ، الذى قد يبدو غامضاً وغير مبرر .

فلما نجحت فى تهديده بأننى سوف أبلغ القائد بفعلته الأخيرة ، وبخروجه من الوحدة وذهابه إلى السويس بدون إذن أو تصريح .. أخبرنى .

« الاستنراف ووقف ، الحرب ومفيش أمل تبدأ ..

لقيت الحل أعمل زى ما أهل السويس بتعمل .. اكتب بالصبغة على البيوت .. »

سألته عما يكتب ؟ ! ، رد بكثير من الاعتزاز :

« النصر لنا » ..

الموت للأعداء » ..

يسقط الاستعمار » ..

وكانت المرة الأولى التى أعرف أن الحجاجى يجيد القراءة والكتابة ، بل ويحمل مؤهلاً متوسطاً من مدارس التعليم الزراعى .. !!

أما القائد فقد ظل على عهده حتى ظن أنه نجح مع الجندى المتمرد ، وكأنه وحدة عسكرية وحده . لولا ما حدث وكان ، ضبطه فيها ينفذ خدمة النوبات الثلاث . سأله ، وعرف الحقيقة ، أن الجندى قام بالنوبات الثلاث الأولى عن زميليه ، وسوف يتابع حالا النوبات الثلاث التالية ، بعد منتصف الليل !

انفعل القائد غاضباً ، وأمر بتنفيذ طابور تكدير لكل الجنود لمدة ساعة .. أما هو فلمدة ساعتين بأداء تمرين رقم ٩ (القرفصاء) وحده ، ثم دخل القائد الملجأ فى منتصف الليل . عندما استيقظ فى الصباح ، لمح الحجاجى يوسف يتابع عد التمرين الشاق ، وقد اكتسى بالعرق اللامع ، حتى التصقت البزة بجسده ! !

ما لم يبح القائد ولا حتى لرئيس أركان الكتيبة وهو صديق له ، أنه تألم ولا يدرى ماذا يفعل مع هذا الحجاجى .. كيف أنه عاقبه هذا العقاب القاسى ، حتى وإن كان الطقس غير حار فى بدايات أكتوبر ؟

كان الرجل على حال ملابسه غير المهندمة .. يقفز إلى أعلى يهبط و مرة مرتكزاً على ركبته اليمنى ، ومرة أخرى على ركبته اليسرى بينما كفاه متشابكتان فوق رأسه .. هكذا بل ملل ولا كلل ..

كل ما استطاع القائد أن يفعله ، أن أمر الجميع بعدم تكليف الجندى بأية أعمال حتى اليوم التالى ، وأمره بالراحة . المدهش ليس

فى قرار القائد المبرر للجميع ، ضحكوا طويلا حين عقب الحجاجى قائلاً :

« أنا شديد يافندم .. أنا شديد »

فتابع القائد إمعاناً فى الإحساس بالذنب ، وأمر :

« العسكرى الحجاجى تعيين مضاعف اليوم ، وخصوصاً فى كمية اللحوم .. وأيضاً فى مدة الإجازة الميدانية فور فتح الإجازات ، إن لم تبدأ المعركة »

بنفس السحنة المحايدة ، علق الجندى :

« وخدمة مضاعفة يافندم »

فضحك الجميع بما فيهم القائد ، إلا « الحجاجى يوسف » !

* * *

وبعد مضى كل تلك السنوات على ملاقاة الرجل ، أصبحت الآن على يقين أن دهشتى ليست بسبب ما كنت أعتقده فى ملبسه أو هيئته ولا حتى شدة جسده أو سلوكه . وان كان عذرى أن رأيته بلا تناسق بين حدود شفتيه الغليظتين ومنخاره المدلى ، بينما عيناه الغائرتان كادتا تلتصقان بسقف جمجمته .. وقد بدت وجنتاه متورمتين بشكل لافت ، وهو ما يشى فى النهاية بغلظة كاذبة للوهلة الأولى .

هذا لو رأيته ، أما إذا سمعت صوته « القرار » حسب ما أطلق عليه صديقنا « بكر » - الموسيقى الحائر كما أطلقنا عليه فى الملجأ .

بسبب حبه للموسيقى ـ هذا كله بجانب ما يفعله مشهد جسده العفى غير المتناسق ، فهو صاحب مصطلح « الجثة » عن نفسه .. يقول :

« الجثة عايزة تأكل ...

الجثة عايزة تنام ... » ،

وما إن يعبر عن جوعه ، تنطلق أفواه الخبثاء :

« خبئوا الأحذية .. الحجاجى جعان !! »

كله كوم وما ينطق به الآن كوم آخر ، تخيل معى هذا الجندى بكل ما عرفت عنه تسمعه يصرخ قائلاً :

« الجثة مشتاقة » !!!

انه يحب ابنة عمه « صفية » ! .

ياله من مخلوق وديع ، كما الوليد النائم .. اسمعه ولو لمرة واحدة يقولها . أكيد سوف تقسم بكل ما تعرفه من صيغ القسم الغليظة أنك أمام ملاك طاهر ، وروح صافية لم تذكرها إلا الكتب المقدسة .

ففى لحظات البوح التى تواتيه بلا مقدمات كاشفة ، وبلا إنذار ، وفى أى زمان أو مكان .. وكأنه الوحى ! . تراه لا يستطيع تكتم الخلجات وارتعاشة أطرافه ، ولا الغشاوة الكاسية عينيه .

ذلك الجندى الذى لا يشى إلا بالفوضى .. كيف يحمل كل تلك المشاعر بين ضلوعه ؟ .. تلك هى مقولة زميلنا الرابع فى الملجأ « عبد الصمد » وهو المحامى مع وقف التنفيذ كما أطلقنا عليه من

فرط فلسفاته في القانون وكأنه واضعه . بينما لا تسمعه سوى جدران الملجأ الحديدى المقوس والمكسو بالخيش المقطرن وشكائر الرمل، وقد أطلقوا عليه الإنجليزية قفص القرد . « يقول رابعنا :

« أكيد » لا مبروزو » هذا الذى وضع أول أول نظرية فى الإجرام غبيا !! ، آه لو كان شاهد ولو لمرة واحدة إيطاليا من مواطنيه بمثل أوصاف الحجاجي .. كان مزق أوراق نظريته الكاذبة المعتمدة على أن الإجرام فى ملامح الأشخاص ؟ ! »

كثيراً ما كان يحلو لنا أن نعلق عيوننا بالسقف المقوس القذر ، ثم نتذكر أحلامنا . نفتعل النكات كى نضحك ، وقد نفتعل الشجار كى نتصايح ونفرج عن مشاعر الكبت إلى حد الاختناق فنتعارك . وكأنه عقد غير معلن بيننا ، من يصرخ أو يتعارك علينا أن نتحمله .. قدر الإمكان .

وكثيراً ما يعلق « عبد الصمد » على الأخبار السياسية فهو على يقين أنه يفوق « حسين هيكل » فى تحليلاته السياسية . أما « بكر » فيتعلق بالناى المدلى إلى جواره ويسمعنا أى لحن يبكينا .. كنا نشترط عليه أن ينشد لحنا يبكينا .

ها هو ذا « الحجاجي » وحده صامتاً .. كأنه بلا طفولة يتذكرها ، وبلا مستقبل يأمل فيه . لا شىء يستطيع التعبير عنه إلا حبه لصفية والبكاء إلى حد النهنهة . وقد علمنا مؤخراً أن أمها لا تريده زوجاً لابنتها لأن الحجاجي يشبه أمه التى أحرقت نفسها من شدة دمامتها ! .

الكل تعرف على الجندى أصبح بينهم مثل الشمس والقمر ،

حتى القائد يضعه فى رأسه دوماً ضمن الأسماء المكلفين بالمهام الشاقة . على الرغم من الشأشأة والتهتهة وكسر رقبة كل حروف الأبجدية يطلبونه شاهد حق على وقائعهم ، وما أكثرها بين الجنود . وحتى خلال الأيام الأولى من شهر أكتوبر وقد منعت الإجازات الميدانية انتظاراً للمعركة التى لا تأتى .. وإن انشغل الجميع فى تنفيذ مناورات الخريف السنوية !!

* * *

أما وقد صدقت نبوءة المخبول « الحجاجى »، وهى صفة من ضمن الأوصاف الكثيرة التى أطلقناها عليه ، بسبب إصراره الواثق على أن الحرب آتية لا ريب فيها بينما يتشكك الجميع ، ومهما طالت فترة اللا سلم واللاحرب .

كان أكثرنا إصراراً إلى حد العناد ، على غير عاداته فى الحديث ولا أقول فى المناقشة ، إذاما تساءلنا عن صدق القرار السياسى وجديته فى البدء بالمعركة وإعلان الحرب .

خلال تلك الأيام انفرط الحجاجى منا ، وكأنه جيش لوحده . إذا ما راقت له فكرة نفذها وحده ودون أوامر .. كأن يحفر العديد من الحفر البرميلية والتى أصبحت تزيد عن حاجة الكتيبة ، وعدد الجنود !

كف الرجل النطق ، حتى صفية لم يعد يذكرها ، يردد جملة وحيدة :

« إحنا مش حانعدى بقى !! »

* * *

بدأت المعارك على طول الجبهة ، إلا وجدتنا ، لم تصدر الأوامر بتنفيذ المهمة المكلفة بها . حتى كان مساء الخامس عشر من أكتوبر . تحركت الكتيبة إلى المنطقة المطلة على طريق « طرطور » ، على مقربة من قرية « الجلاء » أو « المزرعة الصينية » كما أطلق عليها سكان المنطقة ، بسبب وجود فنيين صينيين بتلك المزرعة .

من جراء القذف الجوي لطائرات العدو على أرض الكتيبة ، بدت وكأنها مطحونة بتروس مجنزرات هرستها من قبل . وقف الحجاجي أمام إحدى الحفر العميقة في تلك المساحة ، وكما جنرالات الحرب العظام المحنكين نطقها بصوته الجهوري :

« الحفرة دى عملها شيطان من شياطين العدو لهرس البراغيت التى فى الأرض ! »

فهموا أنه يعنى بالشيطان ، تلك القنبلة المسماة الألف رطل » ، لم ندهش وإن فهمنا ، فقد اعتدنا أنه لا يسمي الأشياء بمسمياتها .فالوطواط هو الطائرة ، والخنفسة يعنى بها الدبابة ، ومع كل بداية تراشق أو غارة جوية يقول :

« بدأت اللعبة من جديد » . .

وهكذا حتى أصبح لحديثه شفرة لا يفهمها إلا من خبرها ، مثلما فعل معنا نحن رفقاء الملجأ .

بدأت عملية التجهيز للتحصينات الدفاعية ، فلا غيره يتقدم بلا أوامر أو تكليف . وهو أمر معتاد ، أما ما لم نتوقعه حقًا ، تلك الثقة

التى وضعها قائد الكتيبة فيه ، وكلفه شخصياً بالتقدم والتمركز فوراً فى مقدمة الموقع الدفاعى الجديد المتقدم « فوق التبة » . كل ما رجوناه من القائد أن نلحق به ، بررنا ذلك بأننا أعتدنا الحياة مع زميلنا المخبول هذا .. فابتسم القائد موافقاً على إلحاق كل مجموعة الملجأ نموقع «التبة» الدفاعى .

ما إن جمعنا الموقع الجديد ، حتى عاد الحجاجى مكرراً سؤاله: « هو إحنا مش حانعدى » ؟؟

ما كان من « عبد الصمد » الفظ فى ردوده دومًا معه ، على الرغم من حبه له :

« هو أنت حاتعدى ترعة بلدكم ، اتلم يا جدع ، بلاش خبل »

يعقب بلا تفكير :

« عايز أحارب بقى ، نفسى أحارب !! »

ضحكنا ، إلا عبد الصمد أيضا :

« أمال إحنا بنعمل إيه من عشرة أيام ، وحتى من سنين ... !!

هى الحرب عندك ، تعدى القناة وبس .... ؟ ! »

لا يعقب الحجاجى ، وإن بدا غير مقتنع البتة .

صدرت الأوامر : « عندما تشاهد دبابات العدو اشتبك » ، فلما حدث و .اهدنا الدبابات الجديدة ، صغيرة الحجم على العكس مما نعرف عن دباباتهم الكبيرة ، علق زميلنا ببساطة قائلا :

« دى عاملة زى العربيات الصغيرة ٠٠٠ »

صرخ قائد المجموعة :

« ليس وقته الآن ، ابدأ الضرب ٠٠٠ »

مؤكد الحجاجى لا يشعر بما نشعر به ، وربما لا يظن أننا فى معركة حقيقية ، وإلا لماذا تركنا واختفى خلف صخرة صغيرة ، بدأ وكأنه يجلس لختم الصلاة ، ثم ينهض بسرعة ويلحق بإحدى الدبابات ثم يقذفها ، فيصيبها إصابة مباشرة !!

لم يعد إلينا منذ الصباح ، وحتى الثالثة بعد الظهر ، وحده عند الطريق الإسفلتى ، فلما قرر أن يعود سألناه عما شاهده عن قرب ، وعدد الدبابات المحطمة ، فقال ببساطة :

« عشرين ، لأ .. ألفين

.. « أنا جعان ياولاد الكلب ، عايز آكل ٠٠ »

يعلم أنه يحمل الوجبات الميدانية ، لم يكن فى حاجة لأن نذكره ، يعيد شبابه قائلا :

« أنا عارف ، معايا خشبسكو ، وحلاوة ... أنا عايز زفر .. بطة أو وزه ٠٠٠ » لم نعلق وإن ابتسمنا .

ثم صمت فجأة ، وسرعان ما أصبح صوت شخيره أعلى من كل الأصوات ، لم يزد عن فتح فرجة صغيرة بين جفونه متسائلا :

« رجعهم تانى ٠٠٠

نحن على يقين بأنهم سوف يعودون ، خلال تلك الفترة تفرغ الجميع لإعداد الاستعواض الإستراتيجى ، لتعويض ما فقد فى المعركة .. مع نقل المصابين .

كما توقع الجميع ، بدأت قوات المظلات الإسرائيلية فى العودة ليلاً اقتربت مقدمتهم واشتعلت المنطقة ، حتى أضاءت الليل نهاراً . الرشاشات « الجرينوف » المصرية فوق التبة صنعت ساتراً من النيران جعل العدو فى حيرة ، سجلتها أجهزة التسمع وترجمها عبد الصمد .

سمع أحد قادة السرايا الإسرائيليين يقول :

« دخلنا الجحيم يا زميل »

علق زميله :

« ولا يمكننا الاستعانة بالمدفعية ، سوف تهلكنا قبل المصريين »

لا حل أمامهم إلا الاختباء فى الظلمة خلف الصخور حتى تأتى الإمدادات ، موقع الرشاشات فوق التبة أحكم إغلاق طريق التقدم عليهم طوال الليل .

مع إشراقة شمس اليوم الجديد ، كان الصمت يحف الجميع ، إلا من الحجاجى الذى تعلق بكلمة واحدة « اضرب » .. « اضرب ياجدع أنت » . حاولنا إفهامه أنها المعركة ، ويجب أحكام العقل وحسن استخدام الذخيرة قدر الإمكان ، لا نرى أحدهم . إذا به يثور ويهيج فينا :

« أنا شاممهم ، على الطلاق شاممهم !! »

مع بدء اقتراب أصوات آلياتهم نحونا ، وقد بدأ ينكشف بعض المظليين منهم ، بعد أن ترك مخبأه إذا بالحجاجي يعود سيرته الأولى . عاد إلى حربه وحده . ترك موقعه بيننا هبط بثقة وتؤدة من فوق التل الصغير ، بنفس حذائه الواسع وملبسه المتهدل .. تقدم نحوهم ، فتح النيران أمامه فقط .. وكلنا يقين أن معركة جديدة بدأت . اشتعلت المنطقة بالنيران من كل جانب ، وكل الأسلحة مثلما كان بالليلة السابقة الجديد فقط أن شاهدنا وسمعنا طلقاتهم أكثر نحو « الحجاجي يوسف ، الذى لم يهمد تماماً ، حتى انتهت كل ذخيرته .. وحتى الآن أسأل نفسي ومن عرفوه من الرفقاء : ترى ، لماذا تقدم الحجاجي وحده .. هل طلبا للشهادة أم كان يرى ما لم نكن نراه ويريد أن ينال منه وحده .. كما كان يفكر وحده . أحدهم لم يحسم الأمر ، وإن أجمع الكل أنه لم يكن مخبولاً ولا درويشاً ولا مهملاً ولا عملاقاً ولا أى شيء ، غير أنه كان صادقاً مع نفسه إلى حد الخبل !!

* * *



رواية قصيرة

انفجـــــار

وقت طويل انقضى ، مللنا جلسات النميمة والبوح والاجترار ، وصوت قرقشة مياه الشرب المخلوطة بالرمال ، والخبز المقدد .. ومللنا صهد الملجأ « قفص القرد » كما أطلقوا عليه ، وزمهرير .. أكلتنا الزهقة ، وتعلقت أرواحنا فى الحوالق .

نقول ثم نصمت ولا نقول شيئا . تأكلنا خراطيم رؤوس الذباب التى لا نراها ، ذباب الصحراء بصحة جيدة ، هى والفئران . فصادقنا الكائنات الشاردة .. عفواً أو جبراً . لكل منا فأره الخاص ، ومجموعة كلاب لأفراد الكتيبة ، تأمن لوجودها بيننا ، وتشغلنا بالحوار معها وإطعامها ، لكنها أبدا لم تقبل أن نلمسها ونتسحها . كل شئ على البعد .. الفئران والكلاب ، والأعداد على الضفة الشرقية .

مجموعة ملجأ « الجن » ، وهو اللقب الذى أطلقوه علينا وعليه ، نرفض البقاء داخله . فضلنا النوم وتناول الطعام خارجه ، فتكدس بالفئران أكثر والذباب . أكثر ما أغضب « العمروسى » ذات صباح ، أن وجد دفتر أشعاره مقضوما . ولأنه يجيد تحويل الأوامر العسكرية وأخبار الصحف حتى صفحة الحوادث إلى شعر .. فقط يرفع من صوته ويخفضه ثم يقف وقفات تخصه أثناء القراءة إذن فهو يجيد الشعر ويقرضه ، هكذا تجنينا عليه ! كان يحمل روحاً شاعرة بحق ، لذا لم نعد نناديه باسمه ، نناديه « يا شاعر » ، وهذا يكفيه ، ويكفيينا !

أطرف ما علق به أحدنا ، ونحن نلملم أشعاره الممزقة ،لحظة أن نطق « عبدون » ، وهو نادراً ما يفعل ، قال له :

« مبروك يا شاعر .. أنت ولدت من جديد اليوم» !!

منذ ذلك اليوم البعيد ، خلال سنوات حرب الاستنزاف ، زاد الشاعر شجناً على أشجانه ، وترك كل الصحف التى اعتاد قراءتها ، اكتفى بلحن حزين وصوت متهدج يردد فى رتابة ، بلا ملل ، يقول :

« .. يا بهية

وخبرينى ....

على اللى جتل ياسين

.. ياطبيب مداوى

داوينى ...

وخبرنى على اللى جتل ياسين »

اعتدنا منه تلك التلاوة المقدسة ، أو التى تبدو كذلك ، وإلا لماذا تغرورق عيناه كلما بدأ ، اعتدناها منذ أن عرفناه ، لكنها زادت شجنا بعد استشهاد « عوض الله » ، رفيق الملجأ أثناء ليلة آخر أيام حرب الاستنزاف .. لعله كان آخر شهداء تلك المعارك . فلما بدأت فترة اللاحرب واللاسلم ، عاود الشاعر قرض الشعر ، وأعد دفتراً جديداً ، إلا أنه لم ينس بهية . نطلبها منه فيغنى ، حتى انتهزها فرصته

الذهبية ، لا غناء إلا بعد أن يسمعنا قصيدة من قصائدة عنوة . نوافق على مضض، حتى فعلتها الفئران للمرة الثانية ، وفيها ضحكنا أكثر كثيراً عن سابقتها . وثانيا تفرغ لأشجانه مع « بهية » فسألته :

« بعد المرة الأولى فقدنا « عوض الله » ، الدور على مين هذه المرة يا دفعة ؟ »

وكأنها البشرى ، منذ أن فعلتها الفئران ،رفعت درجة الاستعداد ومنعت الأجازات الميدانية ، مع استدعاء «الأجازات » أى الأفراد هم الذين بين أحضان ذويهم فى القرى أو النجوع .

إياك أن تفهم أننا سعداء ، إياك أن تتسرع فى فهم كلمة «البشرى » الخادعة ، وأنها تعنى الفرحة بمقدم العيد . ليس أكثر من تمثيل لمشاعر من سيطلق سراحه ، بعد طول غياب .

نجحت فكرة الحرب المنتظرة فى أن تجعلنا نتمنى الموت . فكما نجحت الفئران فى تحريرنا من قبضة الملجأ ، نجحت الأخبار الجديدة باحتمال اندلاع الحرب فى تحريرنا من وصف وصفناه لأنفسنا «السائرون مواتا »،على قافية الرواية التى قرأتها ولم تفقدها رأسي «السائرون نياما » !

«خميس » ثالثنا فى الملجأ أو على الفرشة أمام مدخله، وحده يسعى أن يبعث الحياة فى أرواحنا .لا يفتعل كلمة ولا يسعى لشىء ولا يحلم بشىء ولا يفكر فى الحرب المنتظرة.. تجىء أو لا تجىء.وهب

نفسه لمهمة إطعامنا طعاماً شهيًا في أية فرصة تتاح له ولنا ، قادر على تحويل طعام مطبخ الوحدة « كتيبة المشاة الأولى ، اللواء الثالث » إلى طعام يمكن تناوله . نجح فى دور ارتآه مناسباً له بيننا ، وهو دور يحسب له ، يجعلنا دوما نعبر له عن امتناننا ، ويجعله يفتخر أنه « شيف » أحد الفنادق « خمس نجوم » ، وإن اكتشفنا أنه كان يعمل « مرماطون » أو منظف أوانى فيه . لم تغير الحقيقة من نبل محاولته .

فلما تكاشفنا ، وطالت الأحاديث بيننامع الأيام ، طالت الكلمات حول دائرة الفحولة والرجولة مفرطة تعاطى الجنس . حتى كانت ليلة كالحة السواد ، علق « عوض الله » قبل استشهاده ، قالها وهو يحدق فى عدد النجوم التى لا تعد :

« تعرفوا ليه حرمت نفسى من الأجازات ، وأنا المتزوج الوحيد فيكم ؟ »

لم يعقب أحد .

« اتنيلت بنيله مع مراتى »

فهمنا وان أردنا إزاحة دفة الحديث إلى السخرية الفكهة .. فشلنا . كلنا يدعى الفحولة التى تخرق الحوائط والسدود بينما فى أحاديثنا الثنائية معاً نخشى العنة التى أبكت « عوض الله » .

منذ تللك الليلة البعيدة انكشف المستور ، وأجبنا غناء الشاعر أكثر .

* * *

عندما استلم قائد الكتيبة الإشارة ، وشاع مضمونها بين الجميع .. ففى الوحدة تسرى الأخبار الكاذبة قبل الصادقة ، كما تسرى النار فى الهشيم كما يقولون .. زادت الضحكات الهستيرية !

لقد قررت وزارة الحربية إرسال دفعة من الضباط والجنود لأداء العمرة خلال شهر رمضان ، وعلى من يرغب التقدم بطلب ، وينتظر نتيجة « القرعة » !!

« أى حرب تلك التى ننتظرها ، بعد أن سرحوا دفعة من السائقين ؟ وقرروا سفر الضباط للعمرة ؟ !

« العمرة وفهمنا سرها ، أما تسريح السائقين ؟ ! ! »

« ما هو سر العمرة ؟؟!

« سوف يتولى الضابط مهمة الدعاء على الأعداء فى الكعبة أن نحاربهم بسلاح جديد !»

« قطعنا ضحكاتنا ، لعلنا نفهم »

« وماذا عن تسريح .....»

« لسنا فى حاجة إلى سائقين ، سوف نحارب على جناح الجن » !!

وتجدد الضحك ، بينما لم أستطع أن أحدد من السائل ومن المجيب ، من بالضبط دار وانتهى الحوار ؟!.

* * *

عندما وصلت السيارة الجيب الغامضة فى الصباح الباكر ، هبط الضابط المترب والذى لا يشى بأى انضباط عرفته العسكرية .. سواء فى مظهره أو سلوكه . فالأوفرول المكرمش غير مهندم ، مشبع بالبقع البيضاء من أثر أملاح العرق ، وشعره المتشعث بلا غطاء للرأس وحذاؤه مكسو بالأتربة . يتفصد العرق كما زفير التنفس ، قلقاً فى شرود من يفكر فى أمر داخل رأسه وحده .

لم تطل إقامته داخل ملجأ القائد خرج ، وراجت الإشاعة ، حتى حسمها العقيد بإصدار أمره الغامض بالاستماع إلى الراديو !!

تجددت النكات ، ونفذنا الأمر ، لكن هذه المرة مرشوقين داخل الحفر البرميلية . كان المشهد طريفا ، هناك من حفر حفرة قصيرة ، فسقط فيها أحدنا إلى منتصفه فقط ، وكان « عبدون » الأسمر ، الذى هو أطولنا طولا . ومنهم من حفرها ضيقة ، فضاقت بخميس الذى بان جسده السمين مشكلة ربنا وحده يعلم ماذا سيفعل إن اندلعت الحرب ؟!

لم تمنعنا الحفر ولا الأوامر الجديدة من معاودة الحديث والثرثرة مع النكات القبيحة قليلة الأدب وكأننا نحارب ما بداخلنا من حيرة بممارسة الجنس بالكلمات .

« أخبرنى يا عمروسى عن حبيبتك اللى فى آخر أجازة نمت على فخدها »

« عضتها وأنا نايم ، وهى مطمئنة وسرحانة !! »

« وعبدون .. ياعبدون ، احك لنا عن الطريقة اللى حليت بيها مشكلة الشرق الأوسط مع مراتك استفدت من خبرة الشهيد ؟ »

تدخل خميس :

« أنا الخير والبركة كلها فى هذه الكتيبة .. اسألوه »

« نمت مكانه »

قالها العمروسى وضحك وحده بينما كاد عبدون أن يهيل عليه جبال الرمال من حولنا ..وعلينا .

عاد « خميس » مؤكدا أنه أوصاه بأسرار المهنة ، وكرامات «جوزة الطيب » . توقف فجأة ولم يتابع ، فضل أن يفاجئ الجميع بسؤالى :

« وأنت يا « طارق » .. خبيث وداهية . عمرنا ما سمعناك تتكلم عن حبيبتك ، علشان رقيب طبى ،وحبيبتك محامية يعنى وبتقف قدام القاضى »

اعترضه العمروسى ، وأخبره أنها فى إدارة الشئون القانونية فى وزارة التموين ، ولا تقف أمام القاضى .. ومع ذلك ما علاقة الوقوف أمام القاضى بالحب ؟»

« أصل الحب بهدلة ، وتحس أنك قليل الحيلة كدة .. ضعيف يعنى »

تعالت الضحكات .. « كل ده شايله فى قلبك ياخميس ؟ » . . «احك لنا .. احك لنا ، خلينا نتسلى »

* * *

يمر الوقت على الجنود، على حالتين .. إما محملا بالقلق ، وإما بالغفلة . هذه هى المرة الأولى التى مر فيها الوقت علينا محملا بالقلق والغفلة معاً ، أو بالتغافل منا . الاستعداد للحرب الكيماوية على قدم وساق ، واستلمنا كل ما يلزم ، حتى أصبح الواحد فينا يحمل ثمانية عشر كيلو فوق وزنه ، كل الشدة فوق أكتافنا وحول خصرنا بالكامل ، الخوذة على رأسنا والعقاب بالحبس لمن لا يحمل القرص الألومونيوم المسجل عليه : الاسم والرتبة والرقم العسكرى .

لم نحسم أمرنا إن كنا على استعداد للمعركة والعبور أم لا ؟ !

مللنا الإذاعة وأغنياتها التى لا تشى بشىء ، لا بحرب ولا بسلام يجهز الناس للمعركة ؟ !

ضقنا بالأحاديث والنكات ، وقد قاربت عقارب الساعة إلى الثانية بعد الظهر ، ولفحة شمس أكتوبر فى تلك الفترة لا تقل عن لفحة الصيف .

« رددوا معي يا ولاد الكلب »

نطقها « عبدون » وقد غلبه الزهق ، حتى عيناه حمراوان بشدة يقول :

« يا رب، لو مكتوب على الموت ، أموت وأنا برة الحفرة ، أموت وأنا بأضرب نار »

فسألت :

« صحيح ، لو بدأت غارة جوية ، وضربتنا الطائرات بالقنابل ومتنا وإحنا فى الحفر ، نحتسب شهداء ؟؟ »

« ولو كنت تسير على الإسفلت .. أنت هنا على الجبهة يادفعة »

« أشك » ؟؟

« بلا فلسفة فارغة ... »

ولم تكتمل المجادلة ، كان صوت أزيز الطائرات أعلى فصمت الجميع ....

للمرة الأولى يأتى الأزيز من الغرب فى اتجاه الشرق ، من المطارات المصرية إلى عمق سيناء ..

« تلاحظون إنها سوخرى وميراج مصرية »

« أول مرة من أيام حرب الاستنزاف »

« استر يارب »

« خايف يا خميس »

« خايف ما ترجعش »

« الحكاية بجد يا رجالة »

« الظاهر كده »

« لما تصدر الأوامر »

« اسمعوا ياجماعة ، اسمعوا .. بيان عسكرى »

صمت الجميع .

.. « ردا على العدوان الغادر الذى قام به العدو على بعض مواقعنا ، على خليج السويس وسدرة ، تقوم الآن قواتنا بقصف مواقع العدو »

نطقها « العمروسى » ، ولم يردد ما نردده خلفه .. ؟!!

انشغل الجميع فى اللاشىء ، حتى قطع الشاعر شرودنا قائلاً :

« يارب لو مكتوب على الموت ، أموت فى حضن واحده حلوة زى صوفيا لورين فى فيلم « امرأتان » ..

عندما فهمنا ما يعنيه ، لم نبتسم ، اكتفينا بإدارة أنظارنا نحو السماء الصافية إلا من بؤرة وهج ضوء الشمس الباهر .

* * *

صوت قذائف المدفعية بعيدة المدى أو المدفعية الثقيلة ، غطى على كل شىء .. على صوت الراديو وضحكاتنا التى انتهت . بدت وكأن هناك مدفعية تدك مواقع الحصون على الضفة الشرقية تأتى من خلفنا وفوقنا وتحتنا ، فضلا عن كونها إلى جوارنا ، وهو ما نعرفه واثقين .

كأنه النفير ويوم النشور ، خرجت الجنود من الحفر البرميلية ، ومن حيث تكون .. لا يهم . خرجوا فى اتجاه واحد ، وكأن أمهاتهم أرضعتهم واجبات الموت على صفحة مياه القناة .

« الرجرجة » هى المشهد والحالة ، كل الأشياء تترجرج ، الرجال والقوارب والأسلحة والمياه والسماء والرمال ، حتى العصافير التى ما كنا نراها إلا مع شقشقت الفجر .. كلها ، وكأنها المياه تغلى فى الأوانى فوق المواقد .

فى مثل تلك اللحظات لا تسأل عن الموت ، جميعهم يسأل عن الحياة ويسعى للقبض عليها ، وإلا بماذا تبرر صوت النباح الذى يعلو ،

وصوت رفرفة أجنحة العصافير .. انشغال الجنود بالمهمة التى لا يعلم تفاصيلها القادمة ، حتى شعرت أن معدل إطلاق دانات المدافع الثقيلة أسرع كثيرا من معدلات تدريبات الجنود عليها ، حتى شعرت أن الأرض تميد تحت أقدامنا والسماء . ألم أخبرك أن كل الأشياء تترجرج .

قد يتعرض المرء لموقف مفاجىء .. يقاوم ويحاول استخلاص الحياة من أنياب الهلاك . ها هو أحدهم ، لا أعرفه .. انزلقت قدمه ، سقط فى المياه ، لا يجيد السباحة سب زملاءه لحمله ، اندفع الزورق المطاطى بدونه ، الزورق التالى تولى المهمة .

وذاك فقد نظارته الطبية ، أعرف أنه « عامر » خريج كلية أصول الدين بالأزهر ، لا يرى إصبعه لو فقدها ، هذا ما حدث ولم أعرف تحديداً ماذا فعل ؟ إلا عندما عبرنا وارتطم بى عفوا !!

للمرة الأولى بدت مياه القناة متماوجة، وهى التى عرفناها ساكنة مسطحة دوما ، ربما من فرط وشدة دفعات مجاديف الجنود من فوق القوارب . قرأت عن المد والجزر ولم أعرف تأثيرهما وشكلهما إلا فى تلك المرة التى عبرنا فيها ولم نرسُ إلا بعد نصف كيلو من أمام نقطة الانطلاق .

قذائف هنا وهناك ، لا أدرى إن كانت مصرية أم إسرائيلية ، تسقط بين القوارب .

نجحت فى إسقاط بعضهم فى المياه ، ولم تنجح فى إيقاف سيل القوارب المندفعة .

لم نتفق على شيء البتة أن نمارسه خلال لحظات العبور ، أما وقد تعالت الصيحات بنداء « الله أكبر » فليس فى ذلك فضل لقائد ولا لجندى . ردد الجميع النداء بتلقائية وعلى غير اتفاق .. بدا النداء على غير توحد وفرادى، لحظات وبدا كأن السماء والأرض ومياه القناة والجنود يرددون معاً :

« الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .... »

قطع « عبود » انتباهنا إلى حد الشرود عن بعضنا البعض ، صاح بحزم معروف عنه :

« اسمعوا ..

نتفق .. نكون مع بعض فى مكان ما نكون ، سواء فى الدنيا أو فى الآخرة » !

لم يخل الأمر من مزحة عفوية اعتدناها معاً ، نطقها الشاعر »

« المهم معك المعلقة النحاس »

أو ما عبدون بثقة واطمئنان : « طبعا !! »

تابع الشاعر بثقة وجده أكثر :

« القوارب من حولنا تحمل قاذفات اللهب والذخائر وقنابل الدخان ، وقارب ملجأ الجن يحمل ملعقة عبدون ، وهذا وحده يكفينا» ! !

ثم صاح يدعو زملاءه بالشدة والتجديف بقوة .

دوما يحمل عبدون تلك الملعنة النحاسية اللامعة . أحضرها

معه وهو القادم من إحدى القرى الجبلية فى أسوان ! ، ولا يدرى أحد ماذا يفعل بها ، فهو لا يستخدمها لتناول الطعام ولا يعرف كيف يستخدمها .

عندما سألناه أول مرة ، لم يجب ، اكتفى بما علل به « خميس » دون رفض أو قبول منه . قال خميس :

« المعلقة حرز ياجماعة .. يضعها مع المصحف والورد الذى يقرؤه كل صباح ومساء.. المعلقة حرز » .

حتى تلك اللحظة ، لم يشاركنا الدفعة « حازم » مسئول جهاز التنصت . اعتلى قاربنا على غير التعليمات والأوامر ، لم يلحق بقارب العقيد اعتلى قاربناثم انشغل فى تجهيز جهازه للعمل الغامض الذى لم أراه من قبل .

* * *

الدفعة « حازم » برفقه جهازه السحرى شغلنى ، الملعون بدأ يعمل ! يستمعويترجم عن العبرية ببساطة التنفس. أخبرنا مبتسماً وهو ما أدهشنا كثيراً وسط أصوات الدانات وقد غطتنا رذاذات المياه وبعض منمياه القناة إذا سقطت دانة بين القوارب التى يرونها على سطح مياة القناة إلى قائدهم :

« المصريون ينزلون قوارب كوماندوز فى مياة القناة المواجهة لنا مباشرة »

« المصريون يعبرون الآن » ...

« القوارب مليئة بجموع المشاة » . . .

« يا سيادة القائد ، أرى بعض دانات مدفعيتهم نحو موقعنا » .

« يا إلهى . .القذائف تسقط قريبة منا » . . .

« يبدو إنهم يصححون ضارباتهم ، القذائف تقترب بأكثر » . . .

قائدهم يأمر بخروج دباباتهم فورا لمواجهة القوات المصرية ، التى شارفت على الوصول إلى الضفة الشرقية .

لمحت زورقين على مقربة من قاربنا يقفان . . أطلقا دخانا أزرق كست الظلمة المكان مؤقتا ، فتهامس الجنود ، صاح أحدهم :

« الله اكبر لعبور يا رجاله . . الله اكبر ، الله اكبر ، الله اكبر »

تابع «حازم » بعد أن شاركنا التهليل والتكبير ، يبدو أكثرنا انفعالا وهو يخبرنا بالرسالة التالية التى التقطها حالا وهم يبلغون قائد الحصن بدأ يتضح لنا خبر لم نكن نفهمه تماما ، إنهم يقولون :

. . « سيدى القائد ، إن المصريين أسقطوا قوات كوماندوز بالمظلات من طائرات نقل على مسافة عشرة أميال . . عشرة أميال داخل سيناء . . أرجوك بلغ قيادتنا الأعلى . . أرجوك . . هل تسمعنى ؟ !»

يبدو أن الجندى الإسرائيلين يسمع ردا من قائده وإلا لماذا يصرخ قائلا :

. . «لماذا لم ينجح سلاح الطيران الإسرائيلى حتى الآن ؟ ! »

لم تخل تلك اللحظات المعبأة بالغموض والحيرة ، لم تخل من الطرافة ، فقد هدرت بعض الدانات والطلقات المدفعية العشوائية

علينا ، فغطت المياه وجوه الجميع وانشغلوا للحظات بمسح وجوههم بآلية وتلقائية . إلا أحدهم بالقارب المجاور ، انشغل أكثر من اللازم فى مسح زجاج نظارته الطبية ، الكل يعلم انه لولا ظروف الحرب ما كان لمثله أن يقبل خفيراً فى قرية ، وليس جنديا يعبر القناة ، ومع ذلك سخروا منه طويلا وهم يسألونه عن أحواله لو كسرت النظارة أو « الشوافة » كما يسمونها ؟ وعلت ضحكة . تدخل أحدهم منبها وآمراً بشد الذراع وسرعة التجديف ومعاودة التكبير الذى هدأ قليلاً . لمحنا حالا أحدهم يسبح بجوار القارب وقد انقلب قاربه ، أسرعت ومددت مجدافى نحوه ، أمرته بالتعليق به حتى يعتلى القارب إلى جوارنا . .

رفض الدفعة ، قال وهو يتابع السباحة :

. . « أنا دمياطى يا وحش ، أنا صياد !! »

زميل القارب يتابع رصده ، يبلغ قائد الكتيبة المتقدم فى قاربه الأمامى :

« يا سيادة العقيد ، اسمعهم يقولون إن حاملات الجنود المدرعة بدأت تعبر الآن ، هل تعبر فعلاً ؟ ! »

ثم تابع ترجمته الحرفية :

. . « يالها من كارثة ، الكثير من الجنود المصريين يقفزون على الضفة الشرقية . . بعضهم يحمل قواعد للصواريخ صغيرة الحجم . . . »

. . يرد قائدهم فى عصبية هذه المرة . . . »

. . « ماذا تعنى يا ملعون ؟ »

الجندى الإسرائيلى يوضح :

« الكوماندوز المصريون الآن حولنا من كل جانب .. أكرر من كل جانب ، حول حصننا من كل جانب . » .

.. « يرد قائدهم إذن آمرك أن تحرك الدبابات للمناورة أحذرك أن تصابوا ، استروا أنفسكم ، وانتظروا حتى أوامر جديدة » .

.. « يبدو أن قائد الحصن الإسرائيلى فتح الاتصال على خط قيادته الأعلى ... أخبرهم بالكثير ، فسأله القائد الأعلى :

ـ هل أنت واثق تماماً مما تقول ؟

ـ أكيد واثق أن المصريين من حولى ، يبدو أن المشاة المصريين قرروا زيارة الحصن .... !!

ـ إذن انتظر حتى نعيد حساباتنا .... »

ما كان من قائد الحصن إلا أن بصق على الجهاز أمامه بصوت مسموع .

* * *

لهنيهة لم أسمع إلا صوتا وحيدا داخلى : هل ما أنا فيه الآن هى لحظات العبور حقيقة ؟! كم عشنا الأيام والليالى ، نسأل ونستفسر عما نحن فيه الآن .. فينا من سأل عن شكل الموت أثناء عملية العبور .. آه ، هو الموت الذى لم يخطر على بالى منذ اللحظات الأولى ، لا أدرى لماذا؟ ربما تنسينا المهام الصغيرة فى الحياة تلك المهام المتلاحقة وربما حتى المتكررة .. تنسينا المهام الجليلة التى نصنعها ولا نعيها وننسى الموت عفواً .

عمدا اقتربت من رأس الدفعة « حازم » وقد بدأ يتفصد عرقاً كثيراً ، ومن شدة احتقان وجهه ظننته فى شدة ، سرعان ما عدلت سؤالى مستفسراً إن كان يشعر بأزمة ما ؟

أشاح بوجهه مكتفياً بإشارة سريعة من كفه القريبة .. ولما تأكد من انشغالى به علق :

« أنا كده طول عمرى أعرق فى عز البرد وبأقل مجهود » .

انتهزت فرصة انطلاق لسانه ، تابعت وحدى :

« هل تفكر فى الموت ؟ » .

رمقنى حازم بنظرة لو كان سب أجدادى ولعن أبى وأمى كان أفضل مما فعل ولو أنه لم ينبس !!!

فضلت متابعة الرفاق والتجديف بآلية ، الصياح بالتكبير والتهليل أفقدنى الكثير من أحاسيس التوتر التى أدعى الاعتلاء عليها ومحاولة تجاوزها بالتفكير عمدا فيما هو بعيدا عما حولى بالفعل .

* * *

تدريبات العبور فى ترعة « الخطاطبة » ، لم تتضمن النداء بالتكبير ، ولا بأن يكون قائد الكتيبة فى أول قارب يصل إلى الضفة الشرقية ، ولا أن يحمل أحدهم « علماً » آخر خلسة ، حتى إذا ما فقد العلم الأول ، أو أصيب القارب أثناء العبور يفاجئ الجميع بما يحمل ، وهو ما لم يحدث . وصل العلم المصرى خلف قارب العقيد ، ورشقه الجندى « سلامة » فور وصوله ، فلما ابتسم القائد بسمته الهينة

المعروفة ، ترك لأخر أن يأمر الجندى « سلامة » برفع العلم ورشقه فوق التبة الرملية .. « فوق الساتر الترابى يادفعة » .

تعلقت عيناى بمشهد الجنود وقد اتضح الآن جليا وهم يتسلقون الساتر الترابى على الضفة الشرقية للقناة ابتسمت وأنا أرى العسكرى « ربيع » يصعد بلا بيادة وكأنه يلعب كرة بينا على أرض الوحدة .. كلنا برتدى ملابس الرياضة والحذاء المطاطى ومنا من يرتدى البيادة إلا هو فلا برتدى أيا منها !

جاء دور نقل الذخيرة .. أقام الجنود فى سرعة عجيبة الكوبرى البشرى من أعلى قمة الساتر أو الجبل الترابى وحتى السفح ، ينقلون الصناديق الواحد الآخر ، من فرد إلى آخر وحتى القمة الرمال الناعمة جعلت أقدامهم تغرز فى الرمال ، غاص بعضهم بكل قدميه وحتى منتصف الساقين .

انقضت فترة لم أحسب قدرها وحتى عندما قصصت على أهلى ما كان أثناءها فشلت فى حساب زمن عبورى مع كتيبة المشاة المكلفة بمحاصرة الحصن على أرض الضفة الشرقية .

* * *

وجدتنى على مقربة من العقيد الذى بدأ فوراً مع « الرائد أسامة» فى توجيه مجموعات الأفراد للسيطرة المباشرة على الحصن .

النقيب « البسطويسى » اتصل أنه قائد المجموعة التى تضم الشاعر وخميس وعرفة ، سمعت من يقول على الطرف الآخر :

.. « أسمع الآن صوت دباباتهم من جهة اليمين والجنوب الشرقى يافندم »

عقب العقيد بهدوئه المعهود قائلا :

.. « مهمتك عرقلة وتدمير هذه الدبابات .. كم عددها ؟ »

.. « حوالى خمسة » .

.. « إذن جهز تشكيل من ثلاث مجموعات اقتناص ، احتلوا مرابض الدبابات .. نفذ »

.. « تمام يافندم .. علم »

انقضت عشر دقائق ، أشعل العقيد خلالها سيجارتين حتى جاءت الإشارة التالية :

« تمام يافندم .. تم احتلال المربض » .

فكانت الأوامر هى التصرف حسب الأحوال لتنفيذ المهمة فى الوقت المناسب . ولم ينشغل القائد ورفاقه عن متابعة المعارك المتوقعة لهم على الضفة الشرقية من أجل تحقيق هدف الاستيلاء على الحصن العسكرى . وبدأت المعركة التى عبرت عنها أصوات انفجارات وسحابة من الدخان الأزرق ، حتى الرمال عمت الأبصار لدقائق عاشها الجميع قلقا فى أنتظار النتيجة والإعداد للخطوة التالية .

السعال والرعشة الخفيفة العالقة بصوت المتحدث على الجانب الآخر من أرض المعركة القريبة ، لم يمنع سماع ابلاغ المهم المنتظر ، ولم أنتبه أنه الشاعر يتكلم :

.. « تمام يافندم .. تم تدمير دبابتين ، هربت بقية الدبابات »

العقيد يسأل بلهفة وقلق :

« أين البسطويسى .. أين النقيب قائد المجموعة ؟ »

فلما طال انتظار الرد صرخ أمر بسماع تفاصيل ما حدث ، فورد الرد فى صوت خفيض مختنق :

.. « استشهد يافندم ، مات النقيب فوق إحدى الدبابات ، وهو يحاول فتح برجها لإلقاء قنبلة داخلها »

أخيرا علق العقيد زاعقاً :

« حافظوا على موقعكم .. انتظروا تعليمات جديدة »

* * *

خلال تلك الفترة من الدقائق والساعات الأولى على أرض الحصن وحوله ، انتابتنى مشاعر الحيرة ، شعرت كأن كل جنود الكتيبة يعرفون دورهم يسمعون إلى إنجاز شىء ما إلا أنا . يبدو أن المرض والموت منسيان ههنا . فلا المصابون يبحثون عنى وأنا الرقيب الطبى ، ولا الموتى فى حاجة إلى !!

على قدر ما أنا من احترام وتقدير من الجميع ، منذ التحاقى بالقوات المسلحة مجنداً ثم ألحقت على هذه الكتيبة ، وأنا محل اهتمامهم .. إلا اليوم أو إلا الآن ، لا أحد يسأل عنى ، ولا شىء سوى الغبار والأصوات التى أصابت الجميع بالصمم المؤقت . تمنيت لو سألت العقيد : كيف سأعمل ؟ !

المدهش أن أبحث لى عن دور فوق أرض المعركة ، أكيد من سيعلم منى هذه المقولة سيتهمنى بالخبل . العسكرى « حسانى » وهو واحد من عساكر حامل النقالة التابعين للنقطة الطبية التى ألحقت على الكتيبة قبل المعارك بفترة قصيرة . بذكائه الفطرى أجاب على كل الأسئلة ، قال فى هدؤ غريب :

« ليس وقتك الآن ، لا تقلق » ..

علقت فى نفسى : « إنها الحرب إذن ، الرجال وجها لوجه مع الموت .. ! »

* * *

لم يشغلنى بحق خلف هذا الكم من الأتربة و الروائح النفاذة والقلق والضجيج ،، إلا أجهزة التنصت ، فتابعت الدفعة « حازم » اكتشافى العظيم فى بداية العبور . فهمت أن جنودهم داخل الحصن أصابها الهلع من ذلك الدخان الأصفر الذى اقتحم الحصن على الرغم من كل الأجهزة والموانع التى يسدون بها منافذ الحصن ! قال أحدهم :

« المصريون يلقون علينا غارات سامة صفراء اللون » ..

« اهربوا جميعاً » ..

جندى آخر :

« نعم ، نعم .. اهربوا جميعاً من هذا الحصن المقبرة الفخ »

أحدهم منفعلا :

« أنا مستعد للموت بالرصاص .. أما الغازات فلا .. إنى أختنق .... »

.. « يبدو أن المصريين يريدون اقتحام الحصن ، يظنون أنه بتلك الغازات المسيلة للدموع سيتمكنون من تحقيق أهدافهم . حافظوا على هدوئكم حتى يزول أثر الغاز ، حتى لا ينجح المصريين فى تحطيم روحنا المعنوية بهذه البساطة .. أنتم أقوياء ، أليس كذلك ؟ »

أحدهم صرخ منفعلا قائلا :

.. « هل تريد الحصول على وسام البطولة بأروحنا ، لا تنس أنك طبيب هذا الحصن . أنتم هكذا دائماً يارجال السلاح الطبى .. تدعون إلى الهدوء وفى رؤوسكم الحلول المناسبة للوقت المناسب »

بانفعال يرد الطبيب :

« بل هى الحقيقة .. صدقونى »

ثم أعطى أحد الجنود حقنة مخدرة .. توجه إلى بقية الجنود المذعورة قائلاً :

.. « الآن عودوا إلى أعمالكم حتى لا نهزم بالخوف قبل أن يهزمنا المصريين بأسلحتهم »

اختفت كلمات الطبيب .

أكثر ما أدهشنى فى تلك اللحظات .. أن رأيت جنود كتيبتى المشاة يندفعون من أمامى ومن خلفى نحو الحصن ، كأنهم يعرفون سر المغارة وسر الكنز ، وأنا وحدى فى انتظار ما لم يأت !!

الجنود يزحفون ويعدون نحو الحصن ومن كل اتجاه .. الشيء

الوحيد الذى جمعنى بهم أن بولنا جميعاً فور وصولنا ، فينا من رغب فى التبول وعجز عن تحقيق رغبته ! ، أغلبنا قرأ الشهادتين أكثر من مرة .

كان الجندى « حسين » يعانى من حصوات فى الكلى ، وحده يبحث عنى ، مستنداً على ذراعى صيام الذى لم يعفه من السخرية وهو يتجه نحوى قائلا له :

« هل هذا وقته ، انتظر حتى تموت شهيدا أفضل !! » .

سألته إن كان تناول الدواء الذى صرفه قبل العبور ؟ رد ببساطة أنه نسيها فى المؤخرة !!

* * *

بدأت تتضح لى ملامح معركة عسكرية بهدف السيطرة على الحصن والاستيلاء عليه . مهمة المجموعة الأولى ومنها مجموعة أفراد ملجأ الجن .. رشقوا المزغل العربى حتى كف جنّود المزغل عن الرد ، إلا من طلقات هينة يطلقها أحدهم فى عناد وربما بدافع الخوف . لم تطل مقاومة الجندى داخل المزغل ، لولا أن « عبدون » تسلل فى هدوء وإصرار نحو فتحة المزغل .. فجأة وعلى حين غرة اندفع برشاشة نحو الفتحة يسدها بجسده النحيل !!

اندفعت بقية أفراد المجموعة ، تركوا خلفهم « عبدون » جثة مثقوبة ، لم يأت وقت التأمل بعد .. اندفعوا عبر الممرات الحلزونية المحاطة بالسلك الشائك الملم !!

كثيرون اندفعوا أفرادا وجماعات ، منهم من نجح فى اعتلاء السلم الحلزونى القريب من المزغل والموصل إلى سلم ثان وثالث .. تابعهم فوراً حامل قذائف اللهب . اشتعلت الرمال ، احترقت الحدائد الانفجاريات الأرضية هنا وهناك .. يبدو أن الألغام الأرضية التى زرعوها استيقظت بعد طول سبات .

بمضى الوقت فهمت أن قائد الحصن ظل ينتقل من نقطة إلى أخرى داخل الحصن .. ويسأل نائبه متابعا الموقف . لا رد من النائب إلا بسؤال وحيد :

« أرجوك أن تعيد نداءات الإغاثة إلى القيادة فى العمق » .

لا رد عند القائد إلا :

« هكذا الرد منذ الدقائق الأولى لبداية الهجوم المصرى ، توجد عندنا بعض المتاعب ، طائرات السلاح الجوى المصرى ضربت القاعدة .. نحن فى انتظار القوة التعبوية من العمق »

تابع النائب بانفعال :

« وماذا نحصل بعد كل هذه الحرب التى لا ندرى كيف سيكون مصيرنا إذا عشنا حتى نهايتها ؟

يعلق القائد وكأنه يسخر من نائبه :

« سوف تزور أهلك وأولادك » !

لم ينتظر النائب طويلاً ، قال :

« سوف يكون حصننا هذا فى الخطوط الخلفية ، سنجلس هنا وتكون أولادنا فى القاهرة !! »

وكأن القائد تذكر أمراً :

« متى ميعاد الاتصال التليفونى بالمنزل فى تل أبيب ؟ !

« من الثالثة حتى الرابعة فى صباح اليوم الجديد .... »

... بعد فترة انتظار علق القائد فى هدوء :

« آه .. اليوم الجديد .. هو اليوم الجديد إذن ؟ »

وفى ثوان قليلة رددتها مع جندى جهاز التصنت والاتصال :

« إنه اليوم الجديد بحق » ، خصوصاً وقد شهدت بعينى رأسى أحد جنودنا وقد نجح فى اعتلاء الجانب الترابى ، ثم رشق العلم فوق حصن .

* * *

الفهـــرس

المؤلف

السيد نجم .ABنNegm @ yahoo. Com

-عضو : نادي القصة - اتحاد الكتاب

-أمين سر اتحاد كتاب الإنترنت العرب

- النشر السابق :

١ - مجموعة قصص « السفر » - دار الفكر - عام ١٩٨٤ .

٢ - مجموعة قصص « أوراق مقاتل قديم » هيئة الكتاب عام ١٩٨٨ .

٣ - رواية « أيام يوسف المنسي » نصوص ٩٠ - عام ١٩٩٠ .

٤ - رواية « السمان يهاجر شرقا » - هيئة الكتاب - ١٩٩٥ .

٥ - كتاب « الحرب : الفكرة - التجربة - الإبداع » هيئة الكتاب ١٩٩٥ .

٦ - مجموعة قصص « المصيده » - هيئة الكتاب عام ١٩٩٣ .

٧ - مجموعة قصص «لحظات في زمن التيه » - هيئة قصور الثقافه ١٩٩٨ .

٨ - كتاب « المقاومة والأدب » - هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٠ .

٩ - رواية « العتبات الضيقة » - هيئة الكتاب ٢٠٠٠ .

١٠ - مجموعة قصص «عودة العجوز إلي البحر» - دار الوفاء ٢٠٠١ .

١١ - كتاب « طفل القرن الحادي والعشرين » - دار الوفاء ٢٠٠٢ .

١٢ - كتاب « المقاومة والحرب في الرواية العربية » دار الجمهورية ٢٠٠٥ .

نشر في أدب الطفل

١ - سامح يرسم الهواء - دار المعارف .

٢ - الأسد هس والفيل بص - دار المعارف .

٣ - هالة القمر - دار الهلال .

٤ - الأمومة في عالم الحيوان - دار المعارف .

٥ - ربوت سعيد جداً - دار الهلال .

٦ - مغامرات الأشبال علي أرض الأبطال - هيئة قصور الثقافة .

●● صدر من هذه السلسلة .

١ - آلام صغيرة وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨ .
٢ - يوميات عروبة - د . هانى الرفاعى .
٣ - ما رواه البحراوى - عبد الرحمن شلش .
٤ - أبناء نادى القصة - محمد محمود عبدالرازق .
٥ - زوجتى لا تريد أن تتزوجنى - فتحى سلامة .
٦ - الحى الراقى - فتحى مصطفى .
٧ - الياسمين يتفتح ليلا - عزت نجم .
٨ - حدائق السماء - محمد سليمان .
٩ - الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة .
١٠ - دلونى على السبيل - محمد الشريف .
١١ - الجدة حميدة - حسن الجوخ .
١٢ - فستان زفاف قديم - على عيد .
١٣ - بحر الزين - حسن نور .
١٤ - من أوراق العمر - محمد كمال محمد .
١٥ - إحراج - نادية كيلانى .
١٦ - البنات - هدى جاد .

١٧ ـ عاد الأسد .. أسداً نبيلا ـ عبد المنعم السلاب .

١٨ ـ عراف السيدة الأولى ـ محمد القصبى .

١٩ ـ حكايات عن العربيد ـ صلاح عبد السيد

٢٠ ـ السلمانية ـ صلاح معاطى .

٢١ ـ الفائزون أول القرن الحادى والعشرين ـ الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة .

٢٢ ـ صبحى الجيار والمحنة المضيئة ـ مصطفى عبد الوهاب .

٢٣ ـ الرغبة الوحيدة ـ صوفى عبد الله .

٢٤ ـ الغزال فى المصيدة ـ محمود البدرى .

٢٥ ـ خراط البنات ـ صفوت عبد المجيد .

٢٦ ـ القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع ـ حسين عيد .

٢٧ ـ حوار مع جنيه – عصام الصاوى .

٢٨ – ليلة موت – عبد الحميد الفداوى .

٢٩ – حبيب حبيبى – درويش الزفتاوى .

٣٠ – لقاء غير متوقع – محمد صفوت .

٣١ – التوأم وقصص أخرى – الفائزون فى مسابقة نادى القصة القصيرة .

٣٢ - أكثر من عمر - عبد الفتاح مرسى .

٣٣ - من حياة - رستم كيلانى .

٣٤ - فرحة الأجراس - عبد العال الحمامصى .

٣٥ - أنا .. ونورا .. وماعت - رفقى بدوى .

٣٦ - الليلة الثانية بعد الألف - مختارات من القصة النسائية فى مصر - إعداد وتقديم يوسف الشارونى .

٣٧ - ثلاثية آدم وحواء - عماد الدين عيسى .

٣٨ - الأحلام تتمشى فى الذاكرة - محمد الفارس .

٣٩ - بين الحكى والنقد - نبيل عبد الحميد .

٤٠ - مواسم الشروق - أحمد الشيخ .

٤١ - السقف والناب الأزرق - فؤاد قنديل .

٤٢ - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة لعام ٢٠٠٢ .

٤٣ - خمس سنوات رملية - سمير درويش .

٤٤ - القصة والرواية فى السبعينيات - د. يسرى العزب .

٤٥ - الضوء والظلال - محمد قطب .

٤٦ - عين طفل - د. مرعى مدكور .

٤٧ - فنون روائية - محمود عبد الوهاب .

٤٨ - عطر المشمش - أمين بكر .

٤٩ - أولاد الأفاعى - خليل الجيزاوى .
٥٠ - رواية زوينة - محمد جبريل .
٥١ - التعدد والتباين - أحمد عبد الرازق أبو العلا .
٥٢ - فيل أبيض وحيد - د. محمد حسن عبد الله .
٥٣ - العذاب والصمت - لوسى يعقوب .
٥٤ - عواطف دافئة - وفية خيرى .
٥٥ - أحداث منتصف الليل - رأفت سليم .
٥٦ - ظلال وأشخاص - محمد الحديدى .
٥٧ - قراءة فى القصة والرواية - د. جمال عبد الناصر .
٥٨ - الصوت والصدى - يوسف جوهر .
٥٩ - أشلاء بؤرة العشاق - أحمد محمد حميدة .
٦٠ - ثلاث روايات - السيد نجم .

الإصـــدار القـــادم

قانون الحب

سعيد سالم

دارالنيـــــــل

للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شارع عبده بدران
م. الباشا-المنيل-القاهرة
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع لدارالكتب
٢٠٠٦/٨٤٣١

الترقيم الدولي
I.S.B.N.: 977-432-001-8